تفسير سورة يونس

هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ إلى آخرهنّ ، هكذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس . وحكى عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين ، وهى قوله : ﴿**فإن كنت فى شك** ﴾ فإنها نزلت فى المدينة. وحكى عن الكلبى أنها مكية إلا قوله : ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ فإنها نزلت بالمدينة . وحكى عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر أنها مكية من غير استثناء . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يونس بمكة . وأخرج أبوالشيخ عن ابن سيرين قال : كانت سورة يونس بعد السابعة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أعطانى الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل ». وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما .

﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **الر** ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة فلا نعيده ، ففيه ما يغنى عن الإعادة . وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو وحمزة وخلف وغيرهم . وقرأ جماعة من غير إمالة . وقد قيل: إن معنى ﴿ **الر** ﴾ : أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرا فا

أى وإن شرّا فشرّ . وقال الحسن وعكرمة : ﴿ **الر** ﴾ قسم . وقال سعيد عن قتادة : ﴿**الر**﴾ اسم للسورة . وقيل : غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر اللهّ بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن ﴿ **الر** ﴾ ليس بآية . وعلى أن ﴿ طه ﴾ آية ، وفى مقنع أبى عمرو الدانى أن العادّين لطه آية هم الكوفيون فقط ، قيل : ولعل الفرق أن ﴿ **الر** ﴾ لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم ،

واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده . وقال مجاهد وقتادة :أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث. قيل :﴿ **تلك** ﴾ بمعنى هذه ، أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن . ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر . وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره ، و﴿ **الحكيم** ﴾ المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم معناه : الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل ، كقوله: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : ٢١٣]. وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه فهو فعيل بمعنى مفعول ، أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره . وقيل : الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **أكان للناس عجبا** ﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ . واسم كان ﴿ **أن أوحينا** ﴾ وخبرها ﴿ **عجبا** ﴾ أى أكان إيحاؤنا عجبا للناس . وقرأ ابن مسعود : « عجب » على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، و﴿ **أن أوحينا** ﴾ بدل من عجب . وقرئ بإسكان الجيم من ﴿ **رجل** ﴾ فى قوله : ﴿**إلى رجل منهم** ﴾ أى من جنسهم وليس فى هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن اللهّ سبحانه إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجنّ ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال؛ لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه . ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره ، فإما أن يظهر فى غير شكل النوع الإنسانى ، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم ، أو فى الشكل الإنسانى فلا بدّ من إنكارهم لكونه فى الأصل غير إنسان ، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم . وإن كان لكونه يتيما أو فقيرا . فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره ، وبالغا فى كمال الصفات إلى حدّ يقصرّ عنه من كان غنيا ، أو كان غير يتيم . وقد كان لرسول اللّه ﷺ قبل أن يصطفيه اللّه بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين . قوله: ﴿ **أن أنذر الناس** ﴾ فى موضع نصب بنزع الخافض، أى بأن أنذر الناس . وقيل : هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قوله: ﴿ **قدم صدق** ﴾ أى منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية . ومنه قول ذى الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العالى طمت [1] على البحر

وقال ابن الأعرابى : القدم المتقدّم فى الشرف . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ، يقال : لفلان قدم فى الإسلام ، وله عندى قدم صدق ، وقدم خير ، وقدم شرّ ، ومنه قول العجاج:

---

(١) طم الأمر طما : علا وغلب ، ومنه قيل للقيامة : الطامة . اللسان ١٢/ ٣٧٠ .

زلّ بنو العوام عند آل الحكم وتركوا الملك لملك ذى قدم

وقال ثعلب : القدم كل ما قدمت من خير . وقال ابن الأنبارى : القدم كناية عن العمل الذى لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء . وقال قتادة : سلف صدق ، وقال الربيع : ثواب صدق . وقال الحسن : هو محمد ﷺ ، وقال الحكيم الترمذى : قدمه ﷺ فى المقام المحمود ، وقال مقاتل : أعمالا قدّموها واختاره ابن جرير ، ومنه قول الوضاح :

صل لذى العرش واتخذ قدما ينجيك يوم الخصام والزلل

وقيل : غير ما تقدّم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده . قوله : ﴿ **قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ . قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش وابن محيصن : ﴿**لساحر** ﴾ على أنهم أرادوا رسول الله ﷺ باسم الإشارة . وقرأ الباقون « لسحر » على أنهم أرادوا القرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى البقرة . وجملة : ﴿ **قال الكافرون** ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ؟ وقال القفال : فيه إضمار . والتقدير : فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك .

ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذى حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم فقال : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ أى من كان له هذا الاقتدار العظيم الذى تضيق العقول عن تصوّره كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأعراف فى قوله : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فلا نعيده هنا ، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال : ﴿ **يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ وترك العاطف لأن جملة : ﴿ **يدبر** ﴾ كالتفسير والتفصيل لما قبلها ، وقيل : هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى . وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدّر . وأصل التدبير: النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول . وقال مجاهد : يقضيه ويقدّره وحده . وقيل : يبعث الأمر . وقيل : ينزل الأمر . وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر: الشأن ، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق . قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فردّ الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه فى شىء إلا بعد إذنه ؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب . وقد تقدّم معنى الشفاعة فى البقرة . وفى هذا بيان لاستبداده بالأمور فى كل شىء سبحانه وتعالى ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير ، أى الذى فعل هذه الأشياء العظيمة ﴿ **الله ربكم** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره الاسم الشريف ، و﴿ **ربكم** ﴾ بدل منه أو بيان له أو خبر ثان ، وفى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله :

﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره . فكيف يعبدون الجمادات التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ؟ والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع ، لأن من له أدنى تذكر وأقلّ اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه .

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ وفى هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، وانتصاب ﴿ **وعد الله** ﴾ على المصدر ، لأن فى قوله : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع : الرجوع إليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما ، ثم أكد ذلك الوعد بقوله : ﴿ **حقا** ﴾ فهو تأكيد لتأكيد فيكون فى الكلام من الوكادة ما هو الغاية فى ذلك . وقرأ ابن أبى عبلة : «وعد الله حق » على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ما تقدّم بقوله : ﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب ، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة . قال مجاهد : ينشئه ثم يميته ، ثم يحييه للبعث . وقيل : ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة ، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد الله ، أى وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير : لأنه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء أن تكون « أن » فى موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد بن يحيى بن ثعلب : يكون التقدير : حقا إبداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال : ﴿**ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط** ﴾ أى بالعدل الذى لا جور فيه ﴿ **والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأوّل ، أى ليجزى الذين آمنوا ويجزى الذين كفروا وتكون جملة : ﴿**لهم شراب من حميم** ﴾ فى محل نصب على الحال هى وما عطف عليها ، أى وعذاب أليم ، ويكون التقدير هكذا : ويجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء . ويمكن أن يقال : إن الموصول فى ﴿**والذين كفروا**﴾ مبتدأ وما بعده خبر . فلا يكون معطوفا على الموصول الأوّل ، والباء فى ﴿ **بما كانوا يكفرون**﴾ للسببية ، أى بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب فهو حميم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الر** ﴾ قال : فواتح [السور] [1] أسماء من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عنه قال : فى قوله : ﴿ **الر** ﴾ أنا الله أرى . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : يعنى هذه .

---

(١) سقطت من المطبوعة لفظ (السور) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : الكتب التى خلت قبل القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم . فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد . فأنزل الله ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ الآية [النحل : ٤٣] . فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحجج (١) قالوا : وإذا كان بشرا ، فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ لولا (٢) نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] .يقول : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردًا عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية [الزخرف ٣٢] (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة فى الذكر الأوّل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : القدم هو العمل الذى قدموا . قال الله سبحانه : ﴿ ونكتب (٤) ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : ١٢] . والآثار: ممشاهم . قال : مشى رسول الله ﷺ بين أسطوانتين (٥) من مسجدهم ثم قال : هذا أثر مكتوب . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **قدم صدق** ﴾ قال : محمد ﷺ يشفع لهم . وأخرج ابن مردويه عن علىّ ابن أبى طالب مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال : سلف صدق . والروايات عن التابعين وغيرهم فى هذا كثيرة. وقد قدّمنا أكثرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ قال : يقضيه وحده . وفى قوله :﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه .

﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)** ﴾ .

ذكر هاهنا بعض نعمه على المكلفين . وهى مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته بإتقان صنعه فى هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش وغير ذلك . والضياء قيل : جمع ضوء كالسياط

(١) فى المطبوعة : « الحج » والصحيح ما أثبتناه.
(٢) فى المطبوعة : « فلولا » والصحيح ما أثبتناه.
(٣) ابن جرير ١١/٥٨ .
(٤) فى المطبوعة : « سيكتب » والصحيح ما أثبتناه.
(٥) الأسطوانة : العمود أو السارية .

والحياض . وقرأ قنبل عن ابن كثير: « ضئاء » بجعل الياء همزة مع الهمزة . ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة ، وأصله ضواء فقلبت ياء لكسر ما قبلها . قال المهدوى : ومن قرأ: «ضئاء» بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التى بعد الألف . فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء همزة ، والأولى أن يكون ﴿ **ضياء** ﴾ مصدرا لا جمعا . مثل : قام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور ، إلا أن يحمل على المبالغة ، وكأنهما جعلا نفس الضياء والنور . قيل : الضياء أقوى من النور. وقيل : الضياء هو ما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض . ومن هنا قال الحكماء : إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس .

قوله : ﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى قدر مسيره فى منازل ، أو قدره ذا منازل . والضمير راجع إلى القمر . ومنازل القمر : هى المسافة التى يقطعها فى يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملتها ثمانية وعشرون وهى معروفة . ينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا لا يتخطاه ، فيبدو صغيرا فى أول منازله ، ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا . وإذا كان فى آخر منازله رقّ واستقوس . ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملا ، أو ليلة إذا كان ناقصا ، والكلام فى هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام . وقيل : إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر . كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة: ١١] . وفى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده . كما فى قوله تعالى: ﴿ والقمر قدّرناه منازل ﴾ [يس : ٣٩] ، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير . فقال : ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ فإن فى العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى . وفى العلم بحساب الأشهر والأيام والليالى من ذلك ما لايخفى . ولولا هذا التقدير الذى قدّره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولاعرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم . والسنة تتحصل من اثنى عشر شهرا . والشهر يتحصل من ثلاثين يوما إن كان كاملا . واليوم يتحصل من ساعات معلومة هى أربع وعشرون ساعة لليل والنهار قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فى أيام الاستواء . ويزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة وأيام النقصان . والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف . ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب دون الباطل والعبث . فالإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله . والاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات : تبيينها . والمراد بالآيات : التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوّليا فى ذلك . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب : ﴿**يفصل** ﴾ بالتحتية . وقرأ ابن السميقع : « تفصل » بالفوقية على البناء للمفعول . وقرأ

الباقون بالنون . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ وبعده ﴿ **وما خلق الله فى السموات والأرض** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق فى السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال : ﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ أى الذين يتقون الله سبحانه ويجتنبون معاصيه وخصهم بهذه الآيات ؛ لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شىء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم . وما يصلحهم فى معادهم . قال القفال : من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها . وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله تعالى : ﴿ **جعل الشمس ضياء والقمر نورا** ﴾ قال : لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكى يعرف الليل من النهار ، وهو قوله : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ الآية [الإسراء : ١٢] . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : وجوههما إلى السموات . وأقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن عمرو مثله . وأخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد . ولكن المؤمنون تفكروا فى مجىء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شىء وغطى كل شىء ، وفى مجىء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفى النجوم ، وفى الشتاء والصيف ، فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)** ﴾ .

شرع الله سبحانه فى شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدّم الطائفة التى لم تؤمن ؛ لأن الكلام فى هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغى إهماله مما هو مشاهد لكل حىّ طول حياته . فيتسبب عن إهمال النظر، والتفكر الصادق : عدم الإيمان بالمعاد . ومعنى الرجاء هنا : الخوف ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لـم يرج لسعـها ... وخالفها فى بيت نُوبٍ [1] عَواسلِ

(١) النُّوب : النحل وسميت بذلك ؛لأنها ترعى وتنوب إلى مكانها .

وقيل : ﴿ **يرجون** ﴾ : يطمعون . ومنه قول الشاعر :

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأوّل : لا يخافون عقابا ، وعلى الثانى لا يطمعون فى ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون فى رؤيتنا . وقيل : المراد بالرجاء هنا : التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى ﴿**لا يرجون لقاءنا** ﴾ : لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ أى رضوا بها عرضا عن الآخرة . فعملوا لها ﴿ **واطمأنوا بها** ﴾ أى سكنت أنفسهم إليها وفرحوا بها ﴿**والذين هم عن آياتنا غافلون** ﴾ لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها ﴿ **أولئك مأواهم**﴾ أى مثواهم ومكان إقامتهم النار ، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أى بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد .

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى فعلوا الإيمان الذى طلبه اللّه منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدّم ذكره من الآيات ﴿**وعملوا الصالحات** ﴾ التى يقتضيها الإيمان . وهى ما شرعه اللّه لعباده المؤمنين ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة ، وجملة : ﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ مستأنفة أو خبر ثان أو فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿ **من تحتهم** ﴾ : من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم ؛ لأنهم على سرر مرفوعة . وقوله : ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾ متعلق بـ ﴿**تجرى** ﴾ أو بـ ﴿ **يهديهم** ﴾ أو خبر آخر أو حال من ﴿**الأنهار**﴾ .

قوله : ﴿ **دعواهم** ﴾ أى دعاؤهم ونداؤهم . وقيل : الدعاء : العبادة كقوله تعالى : ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه ﴾ [مريم : ٤٨] . وقيل : معنى ﴿ **دعواهم** ﴾ هنا : الادّعاء الكائن بين المتخاصمين ، والمعنى : أن أهل الجنة يدعون فى الدنيا والآخرة تنزيه اللّه سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية . قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما . وقيل معناه : طريقتهم وسيرتهم . وذلك أن المدّعى للشىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن فى قوله : ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ دعوى ولا دعاء . وقيل : معناه : تمنيهم كقوله :﴿ ولهم ما يدعون ﴾ [يس : ٥٧]، وكأن تمنيهم فى الجنة ليس إلا تسبيح اللّه وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **سبحانك اللهم**﴾ . و﴿ **فيها** ﴾ أى فى الجنة . والمعنى على القول الأوّل : أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح اللّه وتقديسه ، والمعنى: نسبحك يا اللّه تسبيحا . قوله : ﴿ **وتحيتهم فيها سلام**﴾ أى تحية بعضهم للبعض . فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، أو تحية اللّه أو الملائكة لهم ،

فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول . وقد مضى تفسير هذا فى سورة النساء . قوله : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين** ﴾ أى وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح أن يقولوا : الحمد للّه رب العالمين . قال النحاس : مذهب الخليل : أن « أن » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى : أنه الحمد للّه . وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة . والرفع أقيس ، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف . وقرأ ابن محيصن بتشديد أنّ ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ قال : مثل قوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ الآية [هود : ١٥] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : يكون لهم نور يمشون به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : حدّثنا الحسن قال : بلغنا أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فواللّه إنى لأراك عين امرئ صدق ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ؛ وأما الكافر فإذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة . فيقول له : ما أنت ؟ فواللّه إنى لأراك عين امرئ سوء ، فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار » [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم » . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى الهذيل قال : الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام . ثم تلا : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين** ﴾ .

﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ** ﴾

---

(١) ابن جرير ١١/ ٦٣ .

عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا . قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب . فبين الله سبحانه أنه لا مصلحة فى إيصال الشرّ إليهم، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن ، قيل : معنى ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير** ﴾: لو عجل الله للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ أى ماتوا . وقيل: المعنى لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم . وقيل : الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه . قال فى الكشاف : وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له[1] . والمراد : أهل مكة، وقولهم :﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] . قيل : والتقدير : ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم بالخير عند استعجالهم به ، فحذف ما حذف لدلالة الباقى عليه . قال أبو على الفارسى : فى الكلام حذف ، والتقدير : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر** ﴾ تعجيلا مثل ﴿ **استعجالهم بالخير** ﴾ ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو قول الأخفش والفرّاء ، قالوا : وأصله كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . وقال الفراء : كما تقول : ضربت زيدا ضربك ، أى كضربك ، ومعنى ﴿**لقضى إليهم أجلهم** ﴾ : لأهلكوا ، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا . وقيل : معناه : أميتوا . وقرأ ابن عامر : «لقضى» على البناء للفاعل ، وهى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله : ﴿ **ولو يعجل الله** ﴾ قوله : ﴿ **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون** ﴾ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله : ﴿ **ولو يعجل الله** ﴾ يتضمن نفى التعجيل . فكأنه قيل : لكن لا يعجل لهم الشرّ ولا يقضى إليهم أجلهم فنذرهم إلخ ، أى فنتركهم ونمهلهم ، والطغيان : التطاول . وهو العلوّ والارتفاع . ومعنى ﴿**يعمهون**﴾: يتحيرون ، أى نتركهم يتحيرون فى تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا .

ثم بين الله سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشرّ ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضرّ** ﴾ أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به ﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ اللام للوقت كقوله : جئته لشهر كذا . أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه . وتكون اللام بمعنى على، أى دعانا مضطجعا ﴿ **أو قاعدا أو قائما** ﴾ وكأنه قال : دعانا فى جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها

(١) الكشاف : ٢/ ٣٣١ .

الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو اللّه حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشى. والأوّل أولى . قال الزجاج : إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة ؛ لأنه إذا كان داعيا على الدوام ، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب .

قوله : ﴿ **فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه** ﴾ أى فلما كشفنا عنه ضرّه الذى مسه ، كما تفيده الفاء ، مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضرّ ونسى حالة الجهد والبلاء ، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه ؛ كأنه لا عهد له به ؛ كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذى مسه. وقيل :معنى ﴿ **مرّ** ﴾ : استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ . قال الأخفش : « أن » فى ﴿ **كأن لم يدعنا** ﴾ : هى المخففة من الثقيلة ، والمعنى : كأنه انتهى والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال . وهذه الحالة التى ذكرها اللّه سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر . بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم ، فإذا كشفه اللّه عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع . وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره . وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧] . والإشارة بقوله : ﴿**كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة ، أى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف فى اللغة : هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل ﴿ **كذلك** ﴾ النصب على المصدرية . والتزيين هو إما من جهة اللّه تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم ، أو من طريق الشيطان بالوسوسة ، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء . والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا**﴾ يعنى : الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبى ﷺ ، أى أهلكناهم من قبل زمانكم . وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة فى الزجر ، و« لما » ظرف لـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ ، أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب ، والتجارى على الرسل. والتطاول فى المعاصى من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم، والواو فى ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ للحال بإضمار قد ، أى وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات ، أى بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل ، وقيل: الواو للعطف على ﴿**ظلموا** ﴾ والأوّل أولى ، وقيل : المراد بالظلم هنا هو الشرك . والواو فى

﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ للعطف على ظلموا ، أو الجملة اعتراضية . واللام لتأكيد النفى ، أى وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك وسلب الألطاف عنهم ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى القوم المجرمين . وهو الاستئصال الكلى لكل مجرم. وهذا وعيد شديد لمن كان فى عصره من الكفار . أو لكفار مكة على الخصوص .

ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف** ﴾ أى استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة . وقد تقدّم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام [1] ، واللام فى : ﴿ **لننظر كيف تعملون** ﴾ لام كى ، أى لكى ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ ، و ﴿ **كيف** ﴾ فى محل نصب بالفعل الذى بعده ، أى لننظر أىّ عمل تعملونه ، أو فى محل نصب على الحالية ، أى على أىّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف .

ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله فقال : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، والمراد بالآيات : الآيات التى فى الكتاب العزيز ، أى وإذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها بينات ، أى واضحات الدلالة على المطلوب ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدّم تفسيره قريبا ، أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله ﷺ ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ طلبوا من رسول الله ﷺ لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم ، فأمره الله أن يقول فى جوابهم: ﴿ **ما يكون لى** ﴾ أى ما ينبغى لى ولايحلّ لى ﴿ **أن أبدّله من تلقاء نفسى** ﴾ فنفى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل ؛ لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا ، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه . وقيل : إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى ، وهذا منه ﷺ من باب مجاراة السفهاء ، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك . وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة ، و﴿ **تلقاء** ﴾ مصدر استعمل ظرفا ، ﴿ **من تلقاء نفسى** ﴾ قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. وقيل : سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم . وقيل : سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾[الأنعام : ١٦٥].

شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلىّ من عند اللّه سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه ، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى ﷺ بأن القرآن كلامه وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم**﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها . واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، أى ﴿**إنى أخاف إن عصيت ربى** ﴾ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة .

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند اللّه وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره اللّه بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال : ﴿ **قل لو شاء اللّه ما تلوته عليكم** ﴾ أى أن هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وإرادته ، ولو شاء اللّه أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته . فالأمر كله منوط بمشيئة اللّه ليس لى فى ذلك شىء . قوله : ﴿**ولاأدراكم به** ﴾ معطوف على ما تلوته ، ولو شاء اللّه ما أدراكم بالقرآن ، أى ما أعلمكم به على لسانى يقال : دريت الشىء وأدرانى اللهّ به . هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه . وقرأ ابن كثير : «ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ، والمعنى : ولو شاء اللّه لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم . فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقد قرئ : « أدرؤكم » بالهمزة ، فقيل : هى منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد ، ويحتمل أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته داريا . والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال وتكذبوننى . وقرأ ابن عباس والحسن : « ولا أدراتكم به » قال أبو حاتم :أصله: ولا أدريتكم به ، فأبدل من الياء ألفا . قال النحاس : وهذا غلط . والرواية عن الحسن : « ولا أدرأتكم » بالهمزة . قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله** ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة اللّه ولم يكن من النبى ﷺ إلا التبليغ ، أى قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله، أى زمانا طويلا . وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفوننى بالصدق والأمانة . لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿**أفلا تعقلون** ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، أى أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدق والأمانة . وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم . ولا طلبى لشىء من هذا الشأن ولا حرصى عليه ، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة ، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**ولو يعجل اللّه للناس الشرّ** ﴾ الآية . قال : هو قول [1] الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم : اللهم لا تبارك فيه والعنه. ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ قال : لأهلك من دعا عليه وأماته . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم

(١) فى المطبوعة : «قولى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

العنه ، اللهم اخزه . وهو يحب أن يستجاب له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . وحكى القرطبى فى تفسيره عن ابن إسحاق ومقاتل فى الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : ٣٢] . فلو عجل لهم هذا لهلكوا (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **دعانا لجنبه** ﴾ قال : مضطجعا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما** ﴾ قال : على كل حال . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرّائك .

وأقول أنا : أكثر من شكر الله على السرّاء يدفع عنك الضرّاء . فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة ، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان . ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض** ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف فى الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا . فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسرّ والعلانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : ﴿ **خلائف فى الأرض** ﴾ لأمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ قال: هذا قول مشركى أهل مكة للنبى ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ أعلمكم به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ : « ولا أنذرتكم به ». وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله** ﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أذكر . وأخرجا عنه قال : لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين ، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة ، وعشرا بالمدينة ، وتوفى وهو ابن اثنتين وستين سنة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والترمذى عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه . ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة (٢).

﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ** (١٧)

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١٣ والقرطبى ٥/ ٣١٥٥ .

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٢٢) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

ويَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا ينفعُهُمْ ويَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّمواتِ ولا في الأَرْضِ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وما كانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فاخْتَلَفُوا ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فيما فيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **فمن أظلم** ﴾ استفهام فيه معنى الجحد ، أى لا أحد أظلم ﴿ **ممن افترى على اللّه** ﴾ الكذب وزيادة ﴿**كذبا**﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على اللّه هو كذب فى نفسه . فربما يكون الافتراء كذبا فى الإسناد فقط ، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو . ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره . قيل : وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ، أو يبدّله ، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على اللّه ، ولا ظلم يماثل ذلك ، وقيل : المفترى على اللّه الكذب هم المشركون ، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ، والضمير فى ﴿إنه﴾ للشأن ، أى إن الشأن هذا .

ثم نعى اللّه سبحانه عليهم عبادة الأصنام ، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضرّ من لم يعبدها فقال : ﴿**ويعبدون من دون اللّه** ﴾ أى متجاوزين اللّه سبحانه إلى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿ **ما لا يضرّهم ولا ينفعهم** ﴾ أى ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ، ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه ، والواو لعطف هذه الجملة على جملة : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ و« ما » فى ﴿ **مالا يضرهم** ﴾ موصولة أو موصوفة ، والواو فى : ﴿**ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه** ﴾ للعطف على ﴿ **ويعبدون** ﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند اللّه فلا يعذبهم بذنوبهم . وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ فى الحال . وقيل : أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم ، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ قرأ أبو السمال العدوى : « تنبئون » بالتخفيف من أنبأنا ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ ، والمعنى : أتخبرون اللّه أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد ، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه واللّه سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سمواته وفى أرضه ؟ وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا . وفى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى ، ثم نزّه اللّه سبحانه نفسه عن إشراكهم ، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة والكسائى : ﴿ **عما يشركون** ﴾ بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد .

قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى البقرة [١] . والمعنى : أن الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحدة للّه سبحانه مؤمنة به ، فصار البعض كافرا وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقال : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ ، والأوّل أظهر . وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى ، بل المراد : كفر البعض وبقى البعض على التوحيد كما قدّمنا ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ وهى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿ **لقضى بينهم**﴾ فى الدنيا ﴿ **فيما** ﴾ هم ﴿ **فيه يختلفون**﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف . وقيل : معنى ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ : بإقامة الساعة عليهم . وقيل : لفرغ من هلاكهم . وقيل : الكلمة : أن اللّه أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا . وقيل : الكلمة : أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة ، وهى إرسال الرسل كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] . وقيل : الكلمة : قوله : « سبقت رحمتى غضبى » [٢] . وقرأ عيسى بن عمر : «لقضى » بالبناء للفاعل . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزّى ، فأنزل اللّه : ﴿**فمن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون . ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ قال ابن مسعود : كانوا على هدى . وروى أنه قرأ هكذا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة** ﴾ قال : آدم وحده ﴿**فاختلفوا**﴾ قال : حين قتل أحد ابنى آدم أخاه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال : كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا ، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم .

﴿ **وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ** ﴾

(١) تفسير قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ [البقرة : ٢١٣] .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **ويقولون** ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله: ﴿**ويعبدون**﴾ ، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه . قيل : والقائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلا بينا ومصدقًا قاطعا ، أى هلا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك ؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **فقل إنما الغيب لله** ﴾ أى أن نزول الآية غيب ، والله هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته ﴿ **فانتظروا** ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿ **إنى معكم من المنتظرين** ﴾ لنزولها . وقيل : المعنى : انتظروا قضاء الله بينى وبينكم بإظهار الحق على الباطل .

قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ لما بين سبحانه فى الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا ، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضرّاء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم فى آيات الله ؛ والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه : أنه وسع عليهم فى الأرزاق ، وأدرّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب وضيق المعايش ، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم التى لا تنفع ولا تضرّ ، وطعنوا فى آيات الله واحتالوا فى دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها . و« إذا » الأولى شرطية ، وجوابها ﴿ **إذا لهم مكر** ﴾ ، وهى فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل الله أسرع مكرا** ﴾ أى أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا ، ولكن مكر الله أسرع منه . وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر ، أى أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة و تسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرّر فى مواطن من عبارات الكتاب العزيز ﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ قرأ يعقوب فى رواية وأبو عمرو فى رواية : « يمكرون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، والمعنى : أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفى هذا وعيد لهم شديد ، وهذه الجملة تعليلية للجملة التى قبلها ، فإن مكرهم إذا كان ظاهرا لا يخفى ، فعقوبة الله كائنة لا محالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة وهى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضرّ ﴾ [يونس : ١٢] وفى هذه زيادة ، وهى أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض ، بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر .

﴿ **هو الذى يسيركم فى البرّ والبحر** ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما . ومعنى تسييرهم فى البر : أنهم يمشون على أقدامهم التى خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ما خلقه اللّه لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسييرهم فى البحر : أنه ألهمهم لعمل السفائن التى يركبون فيها فى لجج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك . وقد قرأ ابن عامر : « وهو الذى ينشركم فى البحر » بالنون والشين المعجمة من النشر كما فى قوله : ﴿ فانتشروا فى الأرض﴾ [الجمعة : ١٠] . أى ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء ويغرق من يشاء ﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم** ﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ **وجرين** ﴾ أى السفن بهم ، أى بالراكبين عليها ، و﴿**حتى**﴾ لانتهاء الغاية والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة : أوّلها : الكون فى الفلك ، والثانى : جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة ، وثالثها : فرحهم . والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة : الأوّل ﴿ **جاءتها** ﴾ أى جاءت الفلك ريح عاصف أو جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها ريح عاصف ، والعصوف شدّة هبوب الريح ، والثانى : ﴿ **وجاءهم الموج من كل مكان** ﴾ أى من جميع الجوانب للفلك ، والمراد جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث : ﴿ **ظنوا أنهم أحيط بهم** ﴾ أى غلب على ظنونهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدّو بقوم أو ببلد . فجعل هذه الإحاطة مثلا فى الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا . وجواب إذا فى قوله : ﴿ **إذا كنتم فى الفلك** ﴾. قوله : ﴿ **جاءتها** ﴾ إلى آخره ، ويكون قوله : ﴿ **دعوا اللّه** ﴾ بدلا من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه . ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا ؟ فقيل : دعوا اللّه ، وفى قوله : ﴿ **وجرين بهم** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف [1] المبالغة . وقال الرازى : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة فى هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك فى قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : ٥] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب ﴿ **مخلصين** ﴾ على الحال ، أى لم يشوبوا دعاءهم بشىء من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم فى الدعاء ، وليس هذا لأجل الإيمان باللّه وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى اللّه سبحانه ، وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى اللّه فى الشدائد ، وأن المضطرّ يجاب دعاؤه وإن كان كافرا . وفى هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم فى هذه الحالة وما يشابهها ، فيا عجبا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ؟ فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء للّه كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك اللّه ما فعلت هذه

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان ، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأوثان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . واللام فى : ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه** ﴾ هى اللام الموطئة للقسم ، أى قائلين ذلك ، والإشارة : ﴿ **من هذه** ﴾ إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر . واللام فى ﴿**لنكونن**﴾ جواب القسم ، أى لنكونن فى كل حال ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها ، وقيل : إن هذه الجملة مفعول ﴿**دعوا**﴾ .

﴿ **فلما نجاهم** ﴾ الله من هذه المحنة التى وقعوا فيها ، وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم . بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين ، وجعلوا البغى فى الأرض بغير الحق مكان الشكر . و« إذا » فى ﴿ **إذا هم يبغون**﴾ هى الفجائية، أى فاجؤوا البغى فى الأرض بغير الحق . والبغى : هو الفساد ، من قولهم بغى الجرح إذا ترامى فى الفساد ، وزيادة فى الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغى وإن كان ينافى أن يكون بحق ، بل لا يكون إلا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم : بل تمردًا وعنادا؛ لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة .

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون فى الأرض بغير الحق ذكر عاقبة البغى وسوء مغبته . قرأ ابن إسحاق وحفص والمفضل بنصب ﴿**متاع** ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع . فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة، أى بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون ﴿ **متاع** ﴾ فى موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافا ، وقيل : إن ﴿ **متاع** ﴾ على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج ، أى زمن متاع الحياة الدنيا ، وقيل : هو مفعول له ، أى لأجل متاع الحياة الدنيا، وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى كمتاع . وقيل : على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول، أى ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال فى توجيه النصب. وأما من قرأ برفع﴿ **متاع** ﴾ فجعله خبر المبتدأ ، أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون ﴿ **على أنفسكم** ﴾ متعلق بالمصدر ، والتقدير : إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التى لا بقاء لها ، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه : أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة ، وقيل : ارتفاع متاع على أنه خبر ثان . وقيل : على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو متاع . قال النحاس : على قراءة الرفع يكون ﴿ **بغيكم** ﴾ مرتفعا بالابتداء وخبره ﴿**متاع الحياة الدنيا** ﴾ و﴿ **على أنفسكم** ﴾ مفعول البغى ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ **على أنفسكم** ﴾ ويضمر مبتدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا . انتهى . وقد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به

البحث فى غير طائل . والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ ﴿ **على أنفسكم** ﴾ فالمعنى: أن ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وإن جعل الخبر ﴿ **متاع** ﴾ فالمراد أن بغى هذا الجنس الإنسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا ؛ فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى . ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال :﴿ **ثم إلينا مرجعكم** ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على القصر . والمعنى : أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله فيجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ﴿ **فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فى الدنيا ، أى فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشرّ والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ قال: خوفهم عذابه وعقوبته وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ قال : استهزاء وتكذيب . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وظنوا أنهم أحيط بهم**﴾ قال : هلكوا . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ما حاصله :أن النبى ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبى جهل ، هرب من مكة وركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما ، فجاء فأسلم [(١)] . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم ، والخطيب فى تاريخه ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر ، والنكث ، والبغى » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ ، ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] ﴿فمن [(٢)] نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح : ١٠] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تبغ ولا تكن باغيا ، فإن الله يقول : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ » [(٣)] . وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر ، والبغى ، والنكث ، قال الله سبحانه: ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ .

---

(١) ابن إسحاق ٤/ ٥٢ مختصرا ، والطبرى فى التاريخ ٣/ ٣٠ .

(٢) فى المخطوطة: « ومن » والصحيح ما أثبتناه .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٦٧١) ط . دار الكتب العلمية .

أقول أنا : وينبغى أن يلحق بهذه الثلاث التى دل القرآن على أنها تعود على فاعلها : الخدع، فإن الله يقول : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ [البقرة : ٩]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » (١) . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها ، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها ، وتجتلب النفوس ببهجتها . وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا ، ويهتكوا حرمهم حيالها وعشقا لجمالها الظاهرى ، وتكالبا على التمتع بها ، وتهافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب . فقال : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ إلى آخر الآية . والمعنى : أن مثلها فى سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه ، مثل ما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه ، بعد أن كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزهت أوراقه المتصافحة ، وتلألأت أنوار نوره . وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف فى قوله : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ بل ما يفهم من الكلام ، والباء فى : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ للسببية ، أى فاختلط بسببه نبات

(١) المقاصد الحسنة (٨٨٨)، وروى موقوفا ومرفوعا على ابن عباس والموقوف أصح.

الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان فى أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿ **مما يأكل الناس والأنعام** ﴾ من الحبوب والثمار والكلأ والتبن وأخذت الأرض زخرفها . قال فى الصحاح : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مموه مزور . انتهى. والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب ، وبعضه للون الفضة ، وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرد. وأصل ازينت : تزينت ، أدغمت التاء فى الزاى وجىء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن . والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب : « وتزينت » على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأزينت » على وزن أفعلت ، أى أزينت بالزينة التى عليها ، شبها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة الملونة ألوانا كثيرة . وقال عوف ابن أبى جميلة : قرأ أشياخنا « وازيانت » على وزن اسوادت ، وفى رواية المقدمى : « وازانت » والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت . وقرأ الشعبى وقتادة : «أزينت» ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا . ﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير فى عليها للأرض ، والمراد: النبات الذى هو عليها ﴿ **أتاها أمرنا** ﴾ جواب إذا ، أى جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ **فجعلناها حصيدا**﴾ أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعة من أصوله . قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أى كأن لم يكن زرعها موجودا فيه بالأمس مخضرا طريا، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به ، والمراد بالأمس : الوقت القريب ، والمغانى فى اللغة : المنازل. وقال قتادة : كأن لم تنعم ، قال لبيد :

غنيت سنينا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة : « كأن لم يغن » بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف . وقرأ من عداه : ﴿**تغن** ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿ **كذلك** ﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿**نفصل الآيات** ﴾ القرآنية التى من جملتها هذه الآية ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فيما اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية .

قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام ، قال الحسن وقتادة : السلام : هو الله تعالى ، وداره الجنة . وقال الزجاج : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة، ومنه قول الشاعر :

تحيى بالسلامة أم بكر وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل : أراد دار السلام الذى هو التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية

كما فى قوله : ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [إبراهيم : ٢٣] . وقيل : السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها : دار السلام ، والثانية: دار الجلال ، والثالثة : جنة عدن ، والرابعة : جنة المأوى ، والخامسة : جنة الخلد ، والسادسة : جنة الفردوس ، والسابعة : جنة النعيم. وقيل : المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة ، وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة ، وإنما اختلفوا فى سبب التسميه بدار السلام ﴿ **ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة ، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه .

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين ، وبين حال كل طائفة فقال : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ أى الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصى ، والمراد بالحسنى : المثوبة الحسنى . قال ابن الأنبارى : العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها . وقيل: المراد بالحسنى الجنة، وأما الزيادة ، فقيل : المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل ، كقوله : ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ [فاطر : ٣٠] . وقيل : الزيادة : النظر إلى وجهه الكريم . وقيل : الزيادة: هى مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها . وقيل : الزيادة : غرفة من لؤلؤ . وقيل : الزيادة : مغفرة من الله ورضوان . وقيل : هى أنه سبحانه يعطيهم فى الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره، وسيأتى بيان ما هو الحق فى آخر البحث. ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ معنى ﴿ **يرهق** ﴾ : يلحق ، ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل : يعلو. وقيل : يغشى ، والمعنى متقارب . والقتر : الغبار، ومنه قول الفرزدق :

ستوج بـرداء الملك يتبـعـه ... موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقرأ الحسن : « قتر » بإسكان المثناة ، و المعنى واحد ، قاله النحاس ، وواحد القتر : قترة . والذلة : ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان ، والمعنى : أنه لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان . وقيل : القتر : الكآبة . وقيل : سواد الوجوه . وقيل : هو دخان النار . ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها ، المتنعمون بأنواع نعيمها . ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾ هذا الفريق الثانى من أهـل الدعوة ، وهو معطوف على ﴿ **للذين أحسنوا** ﴾ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها ، وهذا أولى من الأول لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين ، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك، وهى ما يتلبس به العصاة من المعاصى ، قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى : جزاء سيئة مثلها ، وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت

مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها كقولك : إنما أنا بك ، ويجوز أن يتعلق بجزاء والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿**جزاء**﴾ مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة فيكون مثل قوله: ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ [البقرة : ١٨٤] أى فعليه عدة . والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

قوله : ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . وقرئ : « يرهقهم » بالتحتية . ﴿**ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أى لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأول أولى . والجملة فى محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما**﴾ قطعا جمع قطعة ، وعلى هذا يكون ﴿ **مظلما** ﴾ منتصبا على الحال من الليل ، أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته . وقد قرأ بالجمع جمهور القراء . وقرأ الكسائى وابن كثير : « قطعا» بإسكان الطاء ، فيكون ﴿**مظلما** ﴾ على هذا صفة لـ ﴿ **قطعا** ﴾ ويجوز أن يكون حالا من ﴿**الليل**﴾ قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل . ﴿ **أولئك** ﴾ أى الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ **أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا** ﴾ الحشر الجمع ، وجميعا منتصب على الحال ﴿ **ويوم** ﴾ منصوب بمضمر ، أى أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة . والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا** ﴾ فى حالة الحشر ووقت الجمع تقريعا لهم على رؤوس الأشهاد ، وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة وحضور معبوداتهم ﴿ **مكانكم** ﴾ أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم ﴿**أنتم وشركاؤكم** ﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسده مسد الزموا ، و ﴿ **شركاؤكم**﴾ معطوف عليه . وقرئ بنصب ﴿ **شركاؤكم** ﴾ على أن الواو واو مع .

قوله : ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا ، يقال : زيلته فتزيل ، أى فرقته فتفرق ، والمزايلة المفارقة ، يقال : زايله مزايلة وزيالا إذا فارقه ، والتزايل : التباين قال الفراء : وقرأ بعضهم : « فزايلنا » والمراد بالشركاء هنا : الملائكة . وقيل : الشياطين . وقيل : الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت . وقيل : المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان ، وجملة : ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه : ما كنتم إيانا تعبدون ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم ، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية .

وقيل : لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم ، فمعناه : إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿**فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم**﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم ﴿**إن كنا عن عبادتكم لغافلين**﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم المعبودون . قالوا لمن عبدهم من المشركين : إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين ؛ لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها.

﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ أى فى ذلك المكان وفى ذلك الموقف ، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فمعنى ﴿ **تبلو** ﴾ : تذوق وتختبر . وقيل : تعلم . وقيل :تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ ﴿**تبلو** ﴾ بالمثناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس ، وأما على قراءة من قرأ : « نبلو » بالنون، فالمعنى : أن الله يبتلى كل نفس ويختبرها ، ويكون ما أسلفت بدلا من كل نفس . والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها . قوله : ﴿ **وردوا إلى الله مولاهم الحق**﴾ معطوف على ﴿ **زيلنا** ﴾ ، والضمير فى ﴿ **ردوا** ﴾ عائد إلى الذين أشركوا ، أى ردوا إلى جزائه ، وما أعد لهم من عقابه ، و ﴿ **مولاهم** ﴾ : ربهم ، و ﴿ **الحق** ﴾ صفة له ، أى الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة ، وقرئ : « الحق » بالنصب على المدح كقولهم : الحمد لله أهل الحمد ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه . والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام إلى الحق ، ويعترفون به ، ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلها ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ قال : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿ **مما يأكل الناس** ﴾ كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**وازينت** ﴾ قال : أنبتت وحسنت ، وفى قوله : ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ قال : كأن لم تعش ، كأن لم تنعم . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرؤون بعد قوله: ﴿ **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ «وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات » . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : كان مكتوب فى سورة يونس إلى حيث هذه الآية : ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها** ﴾ إلى ﴿ **يتفكرون** ﴾ ،

ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فمحيت .

وأخرج أبو نعيم ، والديلمى فى معجمه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ يقول : يدعو إلى عمل الجنة ، والله : السلام ، والجنة : داره . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **ويهدى من يشاء** ﴾ قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا ، ﴿والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى﴾ إلى قوله : ﴿للعسرى﴾ [الليل :١ـ١٠] »[1] . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن سعيد بن أبى هلال سمعت أبا جعفر محمد بن على وتلا : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فقال : حدثنى جابر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتا ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك ؛ فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يامحمد رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها »[2] وقد روى معنى هذا من طرق . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : ذكر لنا أن فى التوراة مكتوبا : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر اتقه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ قال : لبيك ربنا وسعديك .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب ؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة ،

---

(١) أحمد ٥/ ١٩٧ والطيالسى فى مسنده (٩٧٤) وابن جرير ١١/ ٧٣ وابن حبان (٦٨٥) وصححه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣١٣٩) وإسناده رجال موثقون .

(٢) ابن جرير ٧/ ٧٣ وصححه الحاكم ٤/ ٣٩٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٧٠ .

إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؛ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الرؤية ، وابن مردويه عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى وزيادة » فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه، والبيهقى فى الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الزيادة : النظر إلى وجه الرحمن » (٣) . وأخرج هؤلاء والدارقطنى وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ قال : « الذين أحسنوا : أهل التوحيد ، والحسنى : الجنة ، والزيادة: النظر إلى وجه الله » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى وابن مردويه والبيهقى عن أبى بكر الصديق فى الآية قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن على بن أبى طالب فى الآية مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن حذيفة فى الآية قال : الزيادة : النظر إلى وجه اللّه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والدارقطنى والبيهقى عن أبى موسى نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم واللالكائى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن على قال : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وزيادة** ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ق: ٣٥] يقول : يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله . وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] . وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات فى تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه . وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان .

---

(١) أحمد ٤/ ٣٣٢ ، ٣٣٣ ومسلم فى الإيمان (١٨١/ ٢٩٧) والترمذى فى صفة الجنة ونعيمها (٢٥٥٢) وقال الترمذى: « إنما أسنده حماد بن مسلمة ورفعه » وابن ماجة فى المقدمة (١٨٧) وابن جرير ١١/ ٧٥ .
(٢ ، ٣) ابن جرير ١١/ ٧٤ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يرهق وجوههم** ﴾ قال : لا يغشاهم ﴿**قتر**﴾ قال : سواد الوجوه . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : القتر : سواد الوجه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : خزى . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب عن النبى ﷺ ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ قال : « **بعد نظرهم إليه عز وجل** » . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **والذين كسبوا السيئات** ﴾ قال : الذين عملوا الكبائر ﴿ **جزاء سيئة بمثلها** ﴾ قال : النار ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما** ﴾ القطع : السواد . نسختها الآية فى البقرة : ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية [البقرة : ٨١] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وترهقهم ذلة** ﴾ قال : تغشاهم ذلة وشدة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **مالهم من الله من عاصم** ﴾ يقول : من مانع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ قال : الحشر الموت (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ قال : فرقنا بينهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تنصب الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : نعم هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا . فيقولون : بلى والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : ﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله ، فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿ **هنالك تبلو** ﴾ يقول : تتبع . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿ **تبلو** ﴾ : تختبر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **تبلو** ﴾ قال : تعاين ﴿ **كل نفس ما أسلفت** ﴾ ما عملت ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ ما كانوا يدعون معه من الأنداد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿**وردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ قال : نسخها قوله : ﴿ الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : ١١].

﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ** ﴾

(١) ابن جرير ١١/ ٧٨ بدون سند ، قال :« عن مجاهد أنه كان يتأول الحشر فى هذا الموضع : الموت» .

على الَّذين فسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمنُون (٣٣) قُلْ هلْ من شُركَائكُم مَن يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ قُلِ اللَّهُ يبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هلْ من شُركَائكُم مَّن يهْدي إلى الْحقِّ قُلِ اللَّهُ يهْدي للْحقِّ أفَمن يهْدي إلى الْحقِّ أحقُّ أن يُتَّبعَ أمَّن لاَّ يهدِّي إلاَّ أن يُهْدَىٰ فما لكُمْ كيْفَ تحْكُمُونَ (٣٥) وما يتَّبعُ أكْثَرُهُمْ إلاَّ ظَنًّا إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني منَ الْحقِّ شيْئًا إنَّ اللَّهَ عليمٌ بما يفْعلُونَ (٣٦) وما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أن يُفْترَىٰ من دُون اللَّه ولكن تصْديقَ الَّذي بيْنَ يديْه وتَفْصيلَ الْكتَاب لا ريْبَ فيه من ربِّ الْعَالَمينَ (٣٧) أمْ يقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فأْتُوا بسُورَة مِّثْله وادْعُوا منِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُون اللَّه إن كُنتُمْ صَادقينَ (٣٨) بلْ كَذَّبُوا بما لَمْ يُحيطُوا بعلْمه ولَمَّا يَأْتهمْ تَأْويلُهُ كَذَلكَ كَذَّبَ الَّذينَ من قَبْلهمْ فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الظَّالمينَ (٣٩) ومنْهُم مَّن يُؤْمنُ به ومنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمنُ به وربُّكَ أعْلَمُ بالْمُفْسدينَ (٤٠) وإن كَذَّبُوكَ فقُل لِّي عَملي ولَكُمْ عَملُكُمْ أنتُم بريئُونَ ممَّا أعْملُ وأَنَا بريءٌ ممَّا تعْملُونَ (٤١) ﴾ .

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والإعادة والإرشاد والهدى ، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة وأوقع فى النفوس، فقال: ﴿ **قل** ﴾ يا محمد، للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ماهم عليه من الشرك ﴿ **من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن . فإن اعترفوا حصل المطلوب ، وإن لم يعترفوا فلابد أن يعترفوا بأن الله هو الذى خلقهما ﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾ «أم » هى المنقطعة، وفى هذا انتقال من سؤال إلى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والقدرة الباهرة العظيمة ، أى من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من الفوائد مالا يدخل تحت حصر الحاصرين . ثم انتقل إلى حجة ثالثة ، فقال : ﴿ **ومن يخرج الحى من الميت** ﴾ الإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر ﴿ **ويخرج الميت من الحى** ﴾ أى النطفة من الإنسان ، أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيى ويميت . ثم انتقل إلى حجة رابعة ، فقال : ﴿ **ومن يدبر الأمر**﴾ أى يقدره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص ؛ لأنه قد عم ما تقدم وغيره ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أى سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات : إن الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أى الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد

أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم : ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر ، أى تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذى يفعل هذه الأفعال .

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق لا ما جعلتموهم شركاء له ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ للتقريع والتوبيخ إن كانت « ما » استفهامية ، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام ، والمعنى أى شىء بعد الحق إلا الضلال ، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا ؛ لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته وصفاته : ﴿**فأنى تصرفون** ﴾ أى كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون فى الضلال إذ لا واسطة بينهما ؟ فمن تخطى أحدهما وقع فى الآخر ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** ﴾ أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك ، أى حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا ، أى خرجوا من الحق إلى الباطل وتمردوا فى كفرهم عنادا ومكابرة ، وجملة ﴿**أنهم لا يؤمنون** ﴾ بدل من الكلمة . قاله الزجاج : أى حقت عليهم هذه الكلمة ، وهى عدم إيمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام ، أى لأنهم لا يؤمنون . وقال الفراء : إنه يجوز أنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع وابن عامر : «كلمات ربك » بالجمع . وقرأ الباقون بالإفراد .

قوله : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده** ﴾ أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين ، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم ، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد ، ولكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا ، وقد أقام الأدلة عليه فى هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذى لا جحد له ولا إنكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ أى هو الذى يفعل ذلك لا غيره وهذا القول الذى قاله النبى ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب ، إما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وإرشادهم إلى ما يقولون . وإما لكون هذا المعنى قد بلغ فى الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه ، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب فى هذا الجواب فرارا منه عن أن تلزمهم الحجة أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق ، ومعنى ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ : فكيف تؤفكون ، أى تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره .

ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال : ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق** ﴾ والاستفهام هاهنا ، كالاستفهامات السابقة ، والاستدلال بالهداية بعد

الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ [الشعراء : ٧٨] وقوله : ﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٥٠] ، وقوله : ﴿ الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾ [الأعلى : ٢، ٣] ، وفعل الهداية يجىء متعديا باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد. روى ذلك عن الزجاج . والمعنى : قل لهم يا محمد ، هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ويدعو الناس إلى الحق ؟ فإذا قالوا : لا ، فقل لهم : الله يهدى للحق دون غيره ، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا ، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هى بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات ، وإرساله للرسل وإنزاله للكتب ، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ للتقرير وإلزام الحجة .

وقد اختلف القراء فى ﴿ **لا يهدى** ﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعا : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين . قال النحاس : والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد: لابد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاسا . وقرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والإسكان . وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس هذه القراءة بينة فى العربية ، والأصل فيها يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها إلى الهاء . وقرأ حفص ويعقوب والأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء ، قالوا : لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر عن عاصم : « يهدى » بكسر الياء والهاء وتشديد الدال وذلك للاتباع . وقرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وثاب : « يهدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى يهدى . قال النحاس :وهذه القراءة لها وجهان فى العربية ، وإن كانت بعيدة : الأول أن الكسائى والفراء قالا : إن ﴿ **يهدى** ﴾ بمعنى يهتدى . الثانى : أن أبا العباس قال : إن التقدير أم من لا يهدى غيره ، ثم تم الكلام وقال بعد ذلك : ﴿ **إلا أن يهدى** ﴾ أى لكنه يحتاج أن يهدى فهو استثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أى لكنه يحتاج أن يسمع ، والمعنى على القراءات المتقدمة : أفمن يهدى الناس إلى الحق ، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدى به ، أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره ؟ والاستثناء على هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

قوله : ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين ، أى أىّ شىء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، و﴿ كيف ﴾ فى محل نصب بـ ﴿**تحكمون**﴾، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه فى أمر دينهم ، وعلى أى شىء بنوه . وبأى شىء اتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك فقال : ﴿**وما يتبع**

أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير داخل فى الأوامر السابقة، والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون فى إشراكهم بالله وجعلهم له أندادا إلا مجرد الظن والتخمين والحدس (١) ، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط ، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل ، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أى إلا ظنا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون . وقيل : المراد بالآية : إنه ما يتبع أكثرهم فى الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنا . والأول أولى . ثم أخبرنا الله سبحانه بأن مجرد الظن لا يغنى من الحق شيئا ، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم ، وبه يتضح الحق من الباطل ، والظن لا يقوم مقام العلم ، ولا يدرك به الحق ، ولا يغنى عن الحق فى شىء من الأشياء ، ويجوز انتصاب شيئا على المصدرية أو على أنه مفعول به ، و ﴿ **من الحق** ﴾ حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان .

قوله : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع فى تثبيت أمر النبوة : أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون الله ، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا وأدقهم أذهانا ﴿ **ولكن** ﴾ كان هذا القرآن ﴿ **تصديق الذى بين يديه** ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن أقاصيصه موافقة لما فى الكتب المتقدمة ، مع أن النبى ﷺ لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب ﴿ **تصديق** ﴾ على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن ، ويجوز أن يكون انتصابه على الفعلية لفعل محذوف ، أى لكن أنزله الله تصديق الذى بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية:لم ينبغى لهذا القرآن أن يفترى ، كقوله : ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ [آل عمران:١٦١] ، ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : ١٢٢] . وقيل : إن ﴿أن ﴾ بمعنى اللام ، أى وما كان هذا القرآن ليفترى. وقيل : بمعنى لا ، أى لا يفترى . قال الكسائى والفراء : إن التقدير فى قوله : ﴿ **ولكن تصديق** ﴾ ولكن كان تصديق ، ويجوز عندهما الرفع، أى ولكن هو تصديق . وقيل : المعنى : ولكن القرآن تصديق ﴿ **الذى بين يديه** ﴾ من الكتب ، أى أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقا لها . وقيل : المعنى : ولكن تصديق النبى الذى بين يدى القرآن ، وهو محمد ﷺ ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن .

قوله : ﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ فيجىء

---

(١) حدس فى الأرض حدسا : ذهب على غير هداية ، وفى السير : أسرع ومضى على غير استقامة ، وفى الأمر ونحوه ظن وخمّن .

فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين فى ﴿ **تصديق** ﴾ ، والتفصيل : التبيين ، أى يبين ما فى كتب الله المتقدمة ، والكتاب للجنس . وقيل: أراد ما بين فى القرآن من الأحكام ، فيكون المراد بالكتاب : القرآن . قوله : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ الضمير عائد إلى القرآن ، وهو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها ، و ﴿ **من رب العالمين** ﴾ خبر رابع ، أى كائن من رب العالمين ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أو من ضمير القرآن فى قوله : ﴿**لا ريب فيه** ﴾ أى كائنا من رب العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقا بتصديق وتفصيل ، وجملة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ معترضة.

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة ، و « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أيقولون افتراه واختلقه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، أى ويقولون افتراه . وقيل : الميم زائدة ، والتقدير : أيقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ . ثم أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ أى إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله فى البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿**وادعوا** ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ **من استطعتم** ﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التى تجعلونهم شركاء لله . وقوله : ﴿ **من دون الله** ﴾ متعلق بـ ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم فى البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذى نسبتموه إلى وأنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بنى آدم ، أو من الجن ، أو من الأصنام ، فإن فعلتم هذا بعد التيا والتى فأنتم صادقون فيما نسبتموه إلى وألصقتموه بى ، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدى البالغ : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ فأضرب عن الكلام الأول ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب فى التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف ، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه ، كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا . والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشىء فى هذا

التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به ، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله : ﴿ **ولما يأتهم تأويله** ﴾ معطوف على : ﴿ **لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم . والمعنى : أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه ، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين والأمم السابقين ، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التى أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم ، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغى ، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعانى الرشيقة واللطائف الأنيقة ، وكلمة التوقع أظهر فى المعنى الأول . ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه . فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه ، وقبل أن يأتيهم تأويله . ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم ، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم .

قوله : ﴿ **ومنهم من يؤمن به** ﴾ أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه ويعلم أنه صدق وحق ، ولكنه كذب به مكابرة وعنادا : وقيل : المراد : ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن كذب به فى الحال ، والموصول مبتدأ ، وخبره منهم ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ ولا يصدقه فى نفسه ، بل كذب به جهلا كما مر تحقيقه ، أو لا يؤمن به فى المستقبل ، بل يبقى على جحوده وإصراره . وقيل : الضمير في الموضعين للنبى ﷺ . وقد قيل : إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة ، وقيل : عام فى جميع الكفار ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، والمراد بهم : المصرون المعاندون ، أو بكلا الطائفتين ، وهم الذين يؤمنون به فى أنفسهم ويكذبون به فى الظاهر ، والذين يكذبون به جهلا ، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل ، والذين لا يؤمنون به . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه : ﴿ **لى عملى ولكم عملكم** ﴾ أى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه ، وليس على غير ذلك ، ثم أكد هذا بقوله : ﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ أى لا تؤاخذون بعملى ، ولا أؤاخذ بعملكم . وقد قيل : إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك** ﴾ يقول : سبقت كلمة ربك . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : صدقت : وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أم من لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ قال : الأوثان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى** ﴾ الآية ، قال : أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم .

﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾ إلخ بين الله سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النفرة والعداوة إلى هذا الحد ، وهى أنهم يستمعون إلى النبىّ ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع فى الظاهر ، ولكنهم لا يسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع ، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه ولهذا قال : ﴿ **أفأنت تسمع الصمّ** ﴾ يعنى : أن هؤلاء إن استمعوا فى الظاهر فهم صمّ ، والصمم مانع من سماعهم ، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو الصمم ، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لا يعقلون ، فإن من كان أصمّ غير عاقل لايفهم شيئا ولا يسمع ما يقال له . وجمع الضمير فى ﴿**يستمعون** ﴾ حملا على معنى من ، وأفرده فى ﴿ **ومنهم من ينظر** ﴾ حملا على لفظه . قيل : والنكتة : كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناشرين ؛ لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع ، والنور الموافق لنور البصر ، والتقدير فى قوله :﴿ **ومنهم من يستمعون** ﴾،﴿ **ومنهم من ينظر**﴾: ومنهم نامن يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان فى ﴿**أفأنت تسمع** ﴾ ﴿ **أفأنت تهدى** ﴾ للإنكار والفاء فى الموضعين للعطف على مقدر ، كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم ؟ والكلام فى : ﴿ **ومنهم**

من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ كالكلام فى ﴿ **ومنهم من يستمعون**﴾ إلخ ؛ لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر . وقد انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة ؛ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح مايفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصمّ العاقل قد يتحدّس تحدّسا يفيده بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الإدراك . وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسدّ عليه باب الهدى ، وجواب « لو » فى الموضعين محذوف دلّ عليهما ماقبلهما ، والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله ﷺ ، فإن الطبيب إذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه واستراح من الاشتغال به .

قوله : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة ، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم الله شيئا من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس مايصلون به إلى ما يريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش تجنى . وقرأ حمزة والكسائى : « ولكن الناس » بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء ، أن العرب إذا قالت : « ولكن » بالواو شدّدوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها . وقيل : والنكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر ، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر ، أى واذكر يوم نحشرهم ﴿ **كأن لم يلبثوا** ﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ، والجملة فى محلّ نصب على الحال ، أى مشبهين من لم يلبث ﴿ **إلا ساعة من النهار** ﴾ أى شيئا قليلا منه ، والمراد باللبث : هو اللبث فى الدنيا ، وقيل : فى القبور ، واستقلوا المدّة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم فى المحشر ، أو لشدّة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ، ومثل هذا قولهم : ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ [المؤمنون : ١١٣] . وجملة : ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة . والمعنى: يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام . وقيل : إن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [المعارج : ١٠] وقوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]

فيجمع بأن المراد بالتعارف ؛ هو تعارف التوبيخ وعليه يحمل قوله : ﴿ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ [سبأ : ٣١] ، وقد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف ما لا يكون فى الآخر﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين**﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة فى محل النصب على الحال ، والمراد بلقاء الله يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم .

قوله : ﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم** ﴾ أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذى وعدناهم من إظهار دينك فى حياتك. بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فتراه ، أو فذاك ، وجملة ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ معطوفة على ما قبلها ، والمعنى : أو لا نرينك ذلك فى حياتك بل نتوفينك قبل ذلك ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها ، وجواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ محذوف أيضا ، والتقدير : أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة ؛ وقيل : إن جواب ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ هو قوله : ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ لدلالته على ماهو المراد من إراءة النبى ﷺ تعذيبهم فى الآخرة ، وقيل : العدول إلى صيغة المستقبل فى الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر ، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة . وحاصل معنى هذه الآية : إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم وذلهم وذهاب عزّهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر وما بعده من المواطن ، فلله الحمد .

قوله : ﴿ **ثم الله شهيد على مايفعلون** ﴾ جاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة ، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابورى ﴿ **ولكل أمة** ﴾ من الأمم الخالية فى وقت من الأوقات ﴿ **رسول** ﴾ برسله الله إليهم ، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ماتقتضيه المصلحة ﴿**فإذا جاء رسولهم** ﴾ إليهم وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعا ﴿ **قضى بينهم** ﴾ أى بين الأمة ورسولها ﴿ **بالقسط** ﴾ أى العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له كما قال سبحانه : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] . ويجوز أن يراد بالضمير فى ﴿ **بينهم** ﴾ الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر ، فيهلك المكذبون وينجو المصدقون ﴿**وهم لا يظلمون** ﴾ فى ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١] . والمراد المبالغة فى إظهار العدل والنصفة بين

العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبى ﷺ كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿ **يقولون متى هذا الوعد** ﴾ والاستفهام منهم للإنكار والاستبعاد وللقدح فى النبوّة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ خطابا منهم للنبىّ ﷺ وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم الله إليهم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة ويقطع اللجاج فقال : ﴿**قل لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا** ﴾ أى لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى، وقدّم الضرّ، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء فى قوله: ﴿**إلا ما شاء الله** ﴾ منقطع كما ذكره أئمة التفسير ، أى ولكن ما شاء الله من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرا أو نفعا ، وفى هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لايقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فإن هذا مقام ربّ العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شىء الخالق الرازق المعطى المانع ؟ وحسبك بما فى هذه الآية موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعا ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ، فياعجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ ؟ كيف لايتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله ، ومدلول ﴿قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : ١] ؟ وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشدّ منها فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت الضارّ النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقرّبين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من شرّ سماعه والله ناصر دينه ومظهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف : ١٠٤] إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده وجازى كلا بما يستحقه ، والمعنى : أن لكل

أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلا معينا ووقتا خاصا يحلّ بهم مايريده الله سبحانه لهم عند حلوله ﴿ **إذا جاء أجلهم** ﴾ أى ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿ **فلا يستأخرون** ﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿**ساعة** ﴾ أى شيئا قليلا من الزمان ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ عليه ، وجملة : ﴿ **لا يستقدمون** ﴾ معطوفة على جملة ﴿ **لا يستأخرون** ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستآخرون ﴾ [الحجر : ٥]. والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم فى تفسير الآية التى فى أوّل الأعراف فلا نعيده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإما نرينك**﴾ الآية ، قال : سوء العذاب فى حياتك ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ قبل ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم** ﴾ قال : يوم القيامة .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه** ﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التزييف الأوّل ، أى أخبرونى إن أتاكم عذاب الله ﴿ **بياتا** ﴾ أى وقت بيات . والمراد به : الوقت الذى يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز ، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم ، وهو منتصب على الظرفية . وكذلك نهارا ، أى وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب ، والضمير فى ﴿ منه ﴾ راجع إلى العذاب ، وقيل : راجع إلى الله ، والاستفهام فى : ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ للإنكار المتضمن للنهى كما فى قوله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : ١] ووجه الإنكار عليهم فى استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب

الشرط بحذف الفاء . وقيل : إن الجواب محذوف ، والمعنى : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ **أثم إذا ماوقع** ﴾ وتكون جملة : ﴿ **ماذا يستعجل منه المجرمون** ﴾ اعتراضا ، والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان . والأوّل أولى ، وإنما قال : ﴿ **يستعجل منه المجرمون** ﴾ ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ؛ لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه ، فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمرا إذا طلبه : ماذا تجنى على نفسك . وحكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى ﴿ **منه** ﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك فى ﴿**ماذا** ﴾ تقديران : أحدهما : أن تكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و« ذا » بمعنى الذى، وهو خبر ما ، والعائد محذوف ، والتقدير الآخر : أن يكون ﴿ **ماذا** ﴾ اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر ما بعده ، وإن جعل الضمير فى﴿ **منه** ﴾ عائدا إلى اللّه تعالى كان ﴿**ماذا**﴾ شيئا واحدًا فى موضع نصب بـ﴿ **يستعجل** ﴾. والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون ، أى من اللّه عزّ وجلّ .

ودخول الهمزة الاستفهامية فى : ﴿ **أثم إذا ما وقع آمنتم به** ﴾ على ثم كدخولها على الواو والفاء ، وهى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع ما فعلوه فى غير وقته مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به . وجىء بكلمة « ثم » التى للتراخى دلالة على الاستبعاد ، وجىء بـ﴿ **إذا** ﴾ مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استجهال لهم ، والمعنى : أبعد ما وقع عذاب اللّه عليكم . وحلّ بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئا ، ولا يدفع عنكم ضرّا . وقيل: إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم والأول أولى . وقيل إن ثم هاهنا هى بفتح الثاء فتكون ظرفية بمعنى هناك والأوّل أولى .

قوله : ﴿ **آلآن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾ قيل : هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر اللّه رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، أى قيل ، لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون ، أى بالعذاب تكذيبا منكم واستهزاء ؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول التوبيخ لهم والاستهزاء بهم والإزراء عليهم ، وجملة : ﴿ **وقد كنتم به تستعجلون**﴾ فى محل نصب على الحال ، وقرئ : « آلان » بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

قوله : ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ معطوف على الفعل المقدّر ، قيل : آلآن ، والمراد منه: التقريع والتوبيخ لهم ، أى قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : إن هذا الذى تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقل لا يطلب ذلك ،

ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم : ذوقوا عذاب الخلد ، أى العذاب الدائم الذى لا ينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة والتى قبلها قيل : هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ فى الحياة من الكفر والمعاصى . والاستفهام للتقرير ، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة .

ثم حكى اللّه سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة : أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو** ﴾ أى يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار أحق ما تعدنا به من العذاب فى العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهل محض . وظلمات بعضها فوق بعض ، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم فى هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا يقال له . وقيل : المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم . والمبتدأ هو الضمير الذى بعده، وتقديم الخبر للاهتمام ، أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، والجملة فى موضع نصب بـ ﴿**يستنبئونك**﴾ ، وقرئ « آلحق هو » على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل أهو الحق لا الباطل .

قوله : ﴿ **قل إى وربى إنه لحق** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جوابا عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء ، أى قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء : إى وربى إنه لحق ، أى نعم وربى إن ما أعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة . وفى هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأوّل : القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم ؛ الثانى : دخول إن المؤكدة ؛ الثالث : اللام فى لحق ؛ الرابع : اسمية الجملة ، وذلك يدلّ على أنهم قد بلغوا فى الإنكار والتمرّد إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشدّ توعد ، ورهبهم بأعظم ترهيب ، فقال : ﴿ **وما أنتم بمعجزين**﴾ أى فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذى لا ينفع والمكابرة التى لا تدفع من قضاء اللّه شيئا ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب اللّه بوجه من الوجوه .

ثم زاد فى التأكيد ، فقال : ﴿ **ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به** ﴾ أى ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر باللّه وعدم الإيمان به ما فى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة والذخائر الفائقة لافتدت به : أى جعلته فدية لها من العذاب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به ﴾ [آل عمران : ٩١] . وقد تقدم قوله : ﴿ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب** ﴾ الضمير راجع إلى الكفار الذين سياق الكلام معهم . وقيل : راجع إلى الأنفس المدلول عليها بكل نفس . ومعنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أخفوا ، أى لم يظهروا

الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن مما سلب عقولهم ، وذهب بتجلدهم ، ويمكن أنه بقى فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا ، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ، وقيل : أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوهم وحالوا بينهم وبين الإسلام ، ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] . وقيل : معنى ﴿ **أسروا** ﴾ : أظهروا . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى بردّ جمال عاضرة المنادى

وذكر المبرد فى ذلك وجهين : الأوّل : أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة ، وهى الانكسار ، واحدها سرار ، وجمعها أسارير ، والثانى : ما تقدّم . وقيل : معنى ﴿ **أسرّوا الندامة** ﴾ : أخلصوها ؛ لأن إخفاءها إخلاصها ، و ﴿ **لما** ﴾ فى قوله : ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسرّوا ، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿**وقضى بينهم بالقسط**﴾ أى قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين . وقيل: معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقسط : العدل ، وجملة : ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذى حلّ بهم فإنه بسبب ما كسبوا .

وجملة : ﴿ **ألا إن لله ما فى السموات والأرض** ﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته ؛ لأن من ملك ما فى السموات والأرض تصرف به كيف يشاء ، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات ، قيل : لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله ، وليس لهم شىء يتمكنون من الافتداء به . وقيل : لما أقسم على حقية ما جاء به النبى ﷺ أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرّف به كيف يشاء ، وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين ، وإيقاظ للذاهلين ، ثم أكد ما سبق بقوله : ﴿ **ألا إن وعد الله حق**﴾ أى كائن لا محالة ، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا ، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿**ولكن أكثر الناس** ﴾ أى الكفار ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به ، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿ **هو يحيى ويميت** ﴾ يهب الحياة ويسلبها ﴿**وإليه ترجعون** ﴾ فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

قوله : ﴿ **يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم** ﴾ يعنى القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ فى الأصل : هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب ،

والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه ، و« مِنْ » فى ﴿ **من ربكم** ﴾ متعلقة بالفعل ، وهو ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف ، فتكون تبعيضية ﴿ **وشفاء لما فى الصدور**﴾ من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبرمعانيه إلى الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأموال التى يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور .

ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم . فقال : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده فى الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال : فضل الله : القرآن . ورحمته : الإسلام ، وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله : الإيمان . ورحمته : القرآن : والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل فى ذلك ما فى القرآن منهما دخولا أوّليا ، وأصل الكلام : قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله : ﴿ **فبذلك فليفرحوا** ﴾ عليه ، قيل : والفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقدّر كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح . وتكرير الباء فى برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقلّ فى الفرح ، والفرح : هو اللذة فى القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذمّ الله سبحانه الفرح فى مواطن كقوله : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص : ٧٦] . وجوّزه فى قوله: ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [آل عمران : ١٧٠] . وكما فى هذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء فى : ﴿ **بفضل الله وبرحمته** ﴾ بقوله : ﴿ **جاءتكم** ﴾ ، والتقدير : جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك ، أى فبمجيئها فليفرحوا ، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب : « فلتفرحوا » بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحتية ، والضمير فى ﴿ **هو خير**﴾ راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجىء على الوجه الثانى ، أو إلى اسم الإشارة فى قوله : ﴿ **فبذلك** ﴾ والمعنى : أن هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا . وقد قرئ بالتاء الفوقية فى ﴿ **يجمعون** ﴾ مطابقة للقراءة بها فى ﴿ **فلتفرحوا** ﴾ . وقد تقرّر فى العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها ، وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية فى يجمعون كما قرؤوا فى :﴿ **فليفرحوا** ﴾ وروى عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية فى :« يجمعون »والتحتية فى « فلتفرحوا » .

قد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن أبى الأحوص قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فوصف له الخمر ، فقال : سبحان الله ! ما جعل الله فى رجس شفاء، إنما الشفاء فى شىء من القرآن والعسل، فهما شفاء لما فى الصدور وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : إن الله جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله

شفاء لأمراضكم . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أشتكى صدرى ، فقال : « اقرأ القرآن ، يقول اللّه : شفاء لما فى الصدور ». وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع . أن رجلا شكا إلى النبىّ ﷺ وجع حلقه قال : « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما فى الصدور ، والعسل شفاء من كل داء» (١) .

وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبىّ قال : أقرأنى رسول اللّه ﷺ بالتاء يعنى الفوقية(٢) ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ ﴿ قل بفضل اللّه وبرحمته ﴾ قال : « بفضل اللّه : القرآن ، وبرحمته : أن جعلكم من أهله» . وأخرج الضحاك فى الأوسط عن البراء مثله من قوله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى مثله (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب اللّه وبالإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال : فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا قال : بفضل اللّه : القرآن، وبرحمته : حين جعلهم من أهله (٤) . وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ .

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٣٤٤) .

(٢) أبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٠) (٣٩٨١) وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٣ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠١١٥) وابن جرير ١١/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٢٣٦٠) وإسناده ليس بالقوى .

(٤) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠١١٧) .

أشار سبحانه بقوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله** ﴾ إلخ إلى طريق أخرى غير ما تقدّم في إثبات النبوّة ، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض ، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم ، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله ، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، ومعنى ﴿ **أرأيتم** ﴾ : أخبروني ، و﴿ **ما** ﴾ في محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبروني ، وقيل : إن ﴿ **ما** ﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ **آلله أذن لكم** ﴾ و﴿ **قل** ﴾ في قوله : ﴿**قل آلله أذن لكم** ﴾ تكريرللتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بـ﴿ **أرأيتم**﴾، والمعنى : أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، الله أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿ **أم على الله تفترون** ﴾ وعلى الوجهين ، فمن في ﴿ **منه حراما** ﴾ للتبعيض ، والتقدير: فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز ؛ ومعنى إنزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلوّ ، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى لكل شيء فيه . وروى عن الزجاج أن ﴿ **ما** ﴾ في موضع نصب بـ﴿ **أنزل**﴾ ، وأنزل بمعنى خلق كما قال : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : ٦] . ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ [الحديد : ٢٥] . وعلى هذا القول والقول الأوّل يكون قوله : ﴿ **قل آلله أذن لكم** ﴾ مستأنفا : قيل : ويجوز أن تكون الهمزة في ﴿ **آلله أذن لكم** ﴾ للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على الله ، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء .

وفي هذه الآية الشريفة مايصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه ، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ، ولا يفهمونها ولا يدرون ماهي ، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم ، وجعلوه شارعا مستقلا ، ماعمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم ، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه ، فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قلدوه متعبداً بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها ، وقد اجتهد رأيه وأدّى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع خطأ ؛ إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلا معمولا به ، وقد أخطؤوا في هذا خطأ بينا ، وغلطوا غلطا فاحشا ، فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده ، ولا قائل من أهل الإسلام المعتمدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له واقتداء به ، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل ، فهو من الجهل العاطل ، اللهمّ كما رزقتنا من العلم ماتميز به بين الحق والباطل ، فارزقنا من الإنصاف مانظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير .

ثم قال : ﴿ **وما ظنّ الذين يفترون على اللّه الكذب يوم القيامة** ﴾ أى أىّ شىء ظنهم فى هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه . وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر اللّه رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب اللّه ، و﴿ **يوم القيامة** ﴾ منصوب بالظن ، وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد . وقرأ عيسى بن عمر : « وما ظنّ » على أنه فعل ﴿**إن اللّه لذو فضل على الناس**﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا والآخرة ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ اللّه على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرفات .

قوله : ﴿ **وما تكون فى شأن** ﴾ الخطاب لرسول ﷺ ، و« ما » نافية ، والشأن : الأمر ، بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب : ما شأنت شأنه ، أى ما عملت عمله ﴿**وما تتلوا منه من قرآن** ﴾ قال الفراء والزجاج : الضمير فى منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف ، أى تلاوة كائنة منه ، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ ؛ والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذى حدث القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يتلوا القرآن الذى ينزل فى ذلك الشأن . وقال ابن جرير الطبرى : الضمير عائد فى ﴿ **منه** ﴾ إلى الكتاب ، أى ما يكون من كتاب اللّه من قرآن ، وأعاده تفخيما له كقوله : ﴿إننى أنا اللّه﴾ [1] [طه : ١٤] ، والخطاب فى ﴿ **ولا تعملون من عمل** ﴾ لرسول اللّه وللأمة ، وقيل : الخطاب لكفار قريش ﴿ **إلا كنا عليكم شهودا** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين ، أى شهودا عليكم بعمله منكم ، والضمير ، فى ﴿ **فيه** ﴾ من قوله : ﴿ **تفيضون فيه** ﴾ عائد على العمل . يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل : إذا اندفع فيه . وقال الضحاك : الضمير فى ﴿ **فيه** ﴾ عائد على القرآن . والمعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب .

قوله : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ قرأ الكسائى : « يعزب » بكسر الزاى ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان ، ومعنى يعزب : يغيب . وقيل يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب ، وهذه المعانى متقاربة ، و « من » فى ﴿من **مثقال** ﴾ زائدة للتأكيد ، أى وما يغيب عن ربك وزن ذرة ، أى نملة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شىء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما ، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات ، وقدم الأرض على السماء ؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ، والواو فى ﴿**ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** ﴾ للعطف على لفظ مثقال . وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة. وقيل : انتصابهما بلا التى لنفى الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا ﴿ **إلا فى كتاب**﴾ والمعنى: ولا أصغرمن مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو فى كتاب مبين فكيف يغيب

(١) فى المطبوعة :« إنى »، وهو خطأ .

عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ، ذرة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال . وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأول ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا وهو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات ، والغرض : الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات . وأجيب أيضا بأن الاستثناء منقطع : أى لكن هو فى كتاب مبين . وذكر أبو على الجرجانى أن « إلا » بمعنى الواو . على أن الكلام قد تم عند قوله : ﴿**ولا أكبر** ﴾ ثم وقع الابتداء بقوله : ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ أى وهو أيضا فى كتاب مبين والعرب قد تضع إلا موضع الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ﴾ [النمل : ١٠، ١١] يعنى: ومن ظلم ، وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا ﴾ [البقرة : ١٥٠] أى والذين ظلموا ، وقدر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما فى قوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ [البقرة: ٥٨] أى هى حطة، ومثله : ﴿ولا تقولوا ثلاثة ﴾ [النساء : ١٧١] ، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ [الأنعام :٥٩]. وقال الزجاج : إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع ، وخبره ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ واختاره صاحب الكشاف ، واختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس ، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا .

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ، وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين ، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين ، فقال : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الولى فى اللغة : القريب . والمراد بأولياء الله : خلص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته . وقد فسر سبحانه ، هؤلاء الأولياء بقوله : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أى يؤمنون بما يجب الإيمان به ، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه ، والمراد بنفى الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبدا كما يخاف غيرهم ؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها ، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم ، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر ، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة ، وقلوبهم مسرورة : ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو

الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى : فيكون غير متصل بما قبله ، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء .

قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء اللّه ، أى لهم البشرى من اللّه ما داموا فى الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه ، وينزله فى كتبه ، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم ، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم ، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل اللّه به عليهم من إجابة دعائهم ، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم : لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ؛ وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب . والبشرى مصدر أريد به المبشر به ، والظرفان فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم فى الدنياوحال كونهم فى الآخرة ، ومعنى ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه** ﴾ : لا تغيير لأقواله على العموم ، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ الذى لايقادر قدره ولا يماثله غيره ، والجملتان ، أعنى : ﴿ **لا تبديل لكلمات اللّه**﴾ و ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ ، اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوّزه ، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، أو الأولى اعتراضية ، والثانية تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل اللّه لكم من رزق** ﴾ قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ماشاؤوا ويحرّمون ما شاؤوا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إذ تفيضون فيه** ﴾ قال : إذ تفعلون . وأخرج الفريابى وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **وما يعزب عن ربك** ﴾ قال: لا يغيب عنه وزن ذرة ﴿ **ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال: هو الكتاب الذى عند اللّه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ألا إن أولياء اللّه** ﴾ قيل : من هم يارب ؟ قال : هم ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هم الذين إذا رؤوا ذكر اللّه . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا وموقوفا قال : هم الذين إذا رؤوا يذكر اللّه لرؤيتهم . وأخرج عنه ابن المبارك والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والبزار وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه مرفوعًا مثله . وأخرجه ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا وهو مرسل. وروى نحوه من طرق أخرى مرفوعا وموقوفا . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « **لا يحقّ** العبد حق صريح الإيمان حتى يحبّ للّه ويبغض للّه ، فإذا أحبّ للّه وأبغض للّه فقد استحق الولاء من اللّه ، وإنّ أولياءى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر

بذكرهم»[١] . وأخرج أحمد عن عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبى ﷺ : « خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت » [٢] . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله» . وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعا : « إن لله عبادًا ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه » ، فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يارسول الله ، صفهم لنا حلهم لنا؟ قال : « قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل ، تصافوا فى الله وتحابوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم ، يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٣] . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه [٤] . قال ابن كثير : وإسناده جيد ، وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه [٥] . وأخرج أحمد وابن أبى الدنيا ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه [٦] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ **ألا إن أولياء الله** ﴾ الآية فقال : « الذين يتحابون فى الله » . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعًا مثله . وقد ورد فى فضل المتحابين فى الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، والحكيم فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن معنى قوله : ﴿ **لهم البشرى فى الحياة الدنيا** ﴾ فقال : ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : « ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت على : هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهى بشراه فى الحياة الدنيا ، وبشراه فى الآخرة الجنة »، وفى إسناده هذا الرجل المجهول [٧] ، وأخرج أبو داود الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى وابن ماجة والحكيم

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٩٤ « فيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف » .

(٢) أحمد ٤/ ٢٢٧ .

(٣) صححه الحاكم ٤/ ١٧٠ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١١/ ٩٢ ، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٥ والبيهقى فى الشعب (٨٩٩٨) ط : دار الكتب العلمية .

(٥) ابن جرير ١١/ ٩٢ .

(٦) أحمد ٥/ ٣٤٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٧٩ ، ٢٨٥ : « ورجاله وثقوا » .

(٧) ابن أبى شيبة فى الإيمان والرؤيا (١٠٥٠) وأحمد ٦/ ٤٥٢ والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١١/ ٩٣ والبيهقى فى الشعب (٤٧٥٢) ط : دار الكتب العلمية .

الترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا﴾ قال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له »[١] . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ قال :« الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها »الحديث[٢] . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « هى فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفى الآخرة الجنة »[٣] . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده من طريق أبى جعفر عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ فسر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحسنة ، وفى الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأول من حديث جابر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عباس مثله . وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوّة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية . وقد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ [الأحزاب : ٤٧] ، أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم أنها قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : ٣٠] وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقى عن نافع قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدّل كتاب الله ، فقال ابن عمر : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ، ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾[٤] .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ

---

(١) أبو داود الطيالسى (٥٨٣) وأحمد ٥/ ٣١٥ والدارمى ٢/ ١٢٣ والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى الرؤيا (٣٨٩٨) وابن جرير ١١/ ٩٣ وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٤٧٥٣) ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٢١٨ وابن جرير ١١/ ٩٦ والبيهقى فى الشعب (٤٧٦٤) ط : دار الكتب العلمية .

(٣) ابن جرير ١١/ ٩٤ .

(٤) ابن جرير ١١/ ٩٦، ٩٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٩ ، ٣٤٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ : نهى للنبى ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح فى دينه ، والمقصود التسلية له والتبشير ، ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول اللّه ﷺ معللا لما ذكره من النهى لرسوله ﷺ فقال : ﴿ **إن العزّة للّه جميعا** ﴾ أى الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئا . وقرئ : «يحزنك » من أحزنه . وقرئ : « أن العزة » بفتح الهمزة على معنى : لأن العزّة للّه ، ولا ينافى ما فى هذه الآية من جعل العزّة جميعها للّه تعالى قوله سبحانه : ﴿ وللّه[1] العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون : ٨] لأن كل عزّة باللّه فهى كلها للّه ، ومنه قوله : ﴿ كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١]، ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [غافر : ٥١] .

﴿ **ألا إن للّه من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى ﷺ ، وإذا كانوا فى ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء ، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول اللّه ﷺ بما لا يأذن اللّه به وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف . وفى الآية نعى على عباد البشر والملائكة والجمادات ؛ لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجبه العقل ، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء** ﴾ والمعنى : أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة ، لأن ذلك محال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] و« ما » فى ﴿ **وما يتبع** ﴾ نافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا ، والأصل : وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء فى الحقيقة ، إنما هى أسماء لا مسميات لها ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون المذكور مفعول ﴿ **يدعون** ﴾ وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، ويكون على هذا الوجه ﴿**شركاء** ﴾ منصوبا بـ﴿ **يدعون** ﴾ ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والإزراء عليهم . ويجوز أن تكون« ما » موصولة معطوفة على ﴿**من فى السموات** ﴾ أى للّه مَن فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، والمعنى : أن اللّه مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من فى السموات ومن فى الأرض ، ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم والدفع لأقوالهم فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن**﴾ أى ما يتبعون يقينا إنما يتبعون ظنا ، والظنّ لا يغنى من الحق شيئا ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا ، وقد تقدّمت هذه الآية فى الأنعام .

---

(١) فى المطبوعة : «فلله » .

ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال : ﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾ أى جعل لعباده الزمان منقسما إلى قسمين : أحدهما : مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكدّ والكسب ، والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ، ويحصلون مايحتاجون إليه فى وقت مضىء منير ، لا يخف عليه فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه للنهار مبصرا مجاز، والمعنى : أنه مبصر صاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى الجعل المذكور ﴿ **لآيات** ﴾ عجيبة كثيرة ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ أى يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره اللّه سبحانه هاهنا منها ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون . فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان .

قوله : ﴿ **قالوا اتخذ اللّه ولدا سبحانه هو الغنىّ** ﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن اللّه سبحانه اتخذ ولدا ، فردّ ذلك عليهم بقوله : ﴿**سبحانه هو الغنىّ** ﴾ فنزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنى عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة ، والغنىّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضا إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه ، والأزلى القديم لايفتقر إلى ذلك . وقد تقدّم تفسير الآية فى البقرة . ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان ، فقال : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ ، وإذا كان الكل له وفى ملكه فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوّة . ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال : ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ أى ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذى تم لونه ، و« من » فى: ﴿ **من سلطان** ﴾ زائدة للتأكيد ، والجار والمجرور فى﴿ **بهذا** ﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار . ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال : ﴿ **أتقولون على اللّه مالا تعلمون** ﴾ ، ويستفاد من هذا أن كل قول لادليل عليه ليس هو من العلم فى شىء ، بل من الجهل المحض .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا يدل على أن ما قالوه كذب ، وأن من كذب على اللّه لا يفلح فقال : ﴿**قل إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون** ﴾ أى كل مفتر هذا شأنه ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوّليا ، وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز ، والمعنى : أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب . ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى اللّه ، فيعذب المفترى عذابا مؤبدًا ، فيكون ﴿**متاع** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة

يعتدّ بها ، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على اللّه . وقال الأخفش : إن التقدير : لهم متاع فى الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر . وقال الكسائى : التقدير : ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من اللّه وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول اللّه ﷺ ، فجاءه من اللّه فيما يعاتبه : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزّة للّه جميعا هو السميع العليم** ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**والنهار مبصرا** ﴾ قال : منيرا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ يقول : ماعندكم سلطان بهذا .

﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤)** ﴾ .

لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة ؛ شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول اللّه ﷺ فقال : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ أى على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿ **نبأ نوح**﴾ أى خبره ، والنبأ هو الخبر الذى له خطر وشأن ، والمراد : ماجرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم ﴿ **إذ قال لقومه** ﴾ أى وقت قال لقومه ، والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتمال ، واللام فى ﴿ **لقومه** ﴾ لام التبليغ ﴿ **يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى** ﴾ أى عظم وثقل ، والمقام بفتح الميم : الموضع الذى يقام فيه ، وبالضم الإقامة . وقد اتفق القراء على الفتح ، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان : أى لأجله ، ومنه : ﴿ولمن خاف مقام ربه ﴾ [الرحمن : ٤٦] أى خاف ربه ، ويجوز أن يراد بالمقام المكث : أى شق عليكم مكثى بين أظهركم ، ويجوز أن يراد بالمقام القيام ؛ لأن الواعظ يقوم حال وعظه ، والمعنى : إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم ، وكبر عليكم تذكيرى لكم ﴿ **بآيات**

اللّه ﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿ **فعلى اللّه توكلت** ﴾ هذه الجملة جواب الشرط ، والمعنى : إنى لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على اللّه ، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما وحديثا ، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿ **فأجمعوا** ﴾ وجملة ﴿**فعلى اللّه توكلت** ﴾ اعتراض ، كقولك : إن كنت أنكرت علىّ شيئا فاللّه حسبى ، ومعنى ﴿ **فأجمعوا أمركم** ﴾ : اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر : إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء ، وروى عن الفراء أنه قال : أجمع الشىء : أعدّه . وقال مؤرج السدوسى : أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

ياليت شعرى والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله جميعا بعد ما كان متفرّقا ، وتفرّقه أن تقول مرّة أفعل كذا ، ومرّة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه ، أى جعله جميعا ، فهذا هو الأصل فى الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم ، وقد اتفق جمهور القراء على نصب ﴿ **شركاءكم** ﴾ وقطع الهمزة من أجمعوا . وقرأ يعقوب وعاصم الجحدرى بهمزة وصل فى ﴿ **أجمعوا** ﴾ على أنه من جمع يجمع جمعا ، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « وشركاؤكم » بالرفع ، قال النحاس : وفى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأوّل بمعنى : وادعوا شركاءكم ، قاله الكسائى والفراء ، أى ادعوهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر . وقال محمد بن يزيد المبرد : هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر :

ياليت زوجك فى الوغى متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لا يتقلد به ، لكنه محمول كالسيف . وقال الزجاج : المعنى : مع شركائكم ، فالواو على هذا واو مع . وأما على قراءة « اجمعوا » بهمزة وصل فالعطف ظاهر ، أى اجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وأما توجيه قراءة الرفع ، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى ﴿ **أجمعوا** ﴾ ، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة بعيدة لأنه لو كان ﴿**شركاءكم** ﴾ مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو ، وليس ذلك موجودا فيه . قال المهدوى : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها ، وروى عن أبىّ أنه قرأ : « وادعوا شركاءكم » بإظهار الفعل ، قوله : ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ الغمة : التغطية من قولهم ، غمّ الهلال : إذا استتر ، أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغمة نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزجاج ، وقال الهيثم : معناه لا يكن أمركم عليكم مبهما . وقيل : إن الغمة : ضيق الأمر كذا روى عن أبى عبيدة ، والمعنى : لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى

ضيقا شديدا ، بل ادفعوا هذا الضيق والشدّة بما شئتم وقدرتم عليه ، وعلى الوجهين الأوّلين يكون المراد بالأمرالثانى هو الأمر الأول ، وعلى الثالث يكون المراد به غيره . قوله : ﴿ **ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون** ﴾ أى ذلك الأمرالذى تريدونه بى ، وأصل اقضوا : من القضاء ، وهو الإحكام ، والمعنى : أحكموا ذلك الأمر ، قال الأخفش والكسائى : هو مثل : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ [الحجر : ٦٦] أى أنهيناه إليه وأبلغناه إياه ، ثم ﴿ **لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم ، وقيل : معناه : ثم امضوا إلىّ ولا تؤخرون، قال النحاس : هذا قول صحيح فى اللغة ، ومنه: قضى الميت : مضى ، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ :« ثم أفضوا » بالفاء وقطع الهمزة ، أى توجهوا ، وفى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدلّ على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه .

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار وتبليغ الشريعة عن اللّه ليس هو لطمع دنيوىّ ، ولا لغرض خسيس ، فقال : ﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر** ﴾ أى إن أعرضتم عن العمل بنصحى لكم وتذكيرى إياكم ، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إلىّ حتى تتهمونى فيما جئت به ، والفاء فى ﴿ **فإن توليتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها ، والفاء فى ﴿ **فما سألتكم** ﴾ جزائية ﴿ **إن أجرى إلا على اللّه** ﴾ أى ما ثوابى فى النصح والتذكير إلا عليه سبحانه فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم . قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص بتحريك الياء من ﴿ **أجرى** ﴾ ، وقرأ الباقون بالسكون . ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ المنقادين لحكم اللّه الذين يجعلون أعمالهم خالصة للّه سبحانه لا يأخذون عليها أجرا ولا يطمعون فى عاجل .

قوله : ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك** ﴾ أى استمروا على تكذيبه وأصرّوا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن ، والمراد بمن معه من قد أجابه وصار على دينه ، والخلائف جمع خليفة ، والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿ **وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم اللّه بالطوفان ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ فيه تسلية لرسول اللّه ﷺ وتهديد للمشركين وتهويل عليهم .

﴿ **ثم بعثنا من بعده** ﴾ أى من بعد نوح ﴿ **رسلا** ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿ **فجاؤوهم بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات وبما أرسلهم اللّه به من الشرائع التى شرعها اللّه لقوم كل نبىّ ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أى فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر وأصرّوا عليه ، والمعنى : أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل اللّه إليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات ﴿ **بما كذبوا به من قبل** ﴾ أى من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم ، والمعنى : أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل اللّه إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين بـه من قبل مجيئه إليهم ؛ لأنهم كانوا غير

مؤمنين بل مكذبين بالذين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا ، وهذا مبنىّ على أن الضمير فى : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ وفى : ﴿ **بما كذبوا** ﴾ راجع إلى القوم المذكورين فى قوله: ﴿ **إلى قومهم** ﴾ وقيل: ضمير﴿ **كذبوا** ﴾راجع إلى قوم نوح ، أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاؤوا من بعدهم ﴿**وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ وقيل : إن الباء فى ﴿ **بما كذبوا به من قبل** ﴾ للسببية ، أى فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم ، وفيه نظر . وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل ، أى فى عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه ، وإن آمنوا ظاهرا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل : إنه لقوم بأعيانهم ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ أى مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله : ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾ يقول : فأحكموا أمركم وادعوا شركاءكم ، وأخرج أيضا عن الحسن فى الآية : أى فليجمعوا أمرهم معكم ، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ قال : لا يكبر عليكم أمركم ﴿ **ثم اقضوا** ﴾ ما أنتم قاضون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم اقضوا** ﴾ قال : انهضوا ﴿ **إلىّ ولا تنظرون** ﴾ يقول : ولا تؤخرون.

﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلا** ﴾ والضمير فى : ﴿ **من بعدهم** ﴾ راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم ، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ، والمراد بالملأ : الأشراف ، والمراد بالآيات : المعجزات ؛ وهى التسع المذكورة فى الكتاب العزيز ﴿**فاستكبروا** ﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها ﴿ **وكانوا قوما مجرمين** ﴾ أى كانوا ذوى إجرام عظام وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردّها ؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب . قيل : وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها .

قوله : ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ أى فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند الله وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل حملوها على مكابرة منهم ، فردّ عليهم موسى قائلا : ﴿ **أتقولون للحقّ لما جاءكم أسحر هذا**﴾ قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف إنكارا آخر من جهة نفسه فقال : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى ، والملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر؛ لأنهم قالوا : ﴿**إن هذا لسحر مبين** ﴾ فحينئذ لا يكون قوله : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ من قولهم ، وقال الأخفش :هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدّمنا ، وقيل : معنى ﴿**أتقولون** ﴾ : أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ، ثم قال : أسحر هذا منكرا لما قالوه . وقيل : إن مفعول ﴿ **أتقولون** ﴾ محذوف ، وهو ما دلّ عليه قولهم: ﴿ **إن هذا لسحر**﴾ والتقدير : أتقولون **ما** تقولون ، يعنى : قولهم : إن هذا لسحر مبين ثم قيل : أسحر هذا ، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوّل فتكون جملة : ﴿ **أسحر هذا** ﴾ مستأنفة من جهة موسى عليه السلام ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين ؟ فقيل : قال : أتقولون للحق لما جاءكم ، على طريقة الاستفهام الإنكارى ، والمعنى : أتقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين ، وهو أبعد شىء من السحر . ثم أنكر عليهم وقرّعهم ووبخهم فقال : ﴿ **أسحر هذا**﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكاربعد إنكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح الساحرون فلا يظفرون بمطلوب **ولا** يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه ، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند الله ، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة ؟

وجملة : ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال ؟ وفى هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يجحدوا مايجيبون به عما أورده عليهم ، بل لجؤوا إلى

ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقى على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت ، يقال : لفته لفتا ، إذا صرفه عن الشىء ولواه عنه ، ومنه قال الشاعر :

تلفت نحو الحىّ حتى رأيتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أى تريد أن تصرفنا عن الشىء الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء : الملك ، قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ؛ وقيل : بذلك لأن الملك يتكبر .

والحاصل : أنهم عللوا عدم قبولهم بدعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء ، والحرص على الرياسة الدنيوية ؛ لأنهم إذا أجابوا النبى وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، ولم يبق للملك رئاسة تامة ؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا : ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع فى إيمانهم ، وقد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم : ﴿**أجئتنا لتلفتنا** ﴾ ثم جمعوا بينه وبين هارون فى الخطاب فى قولهم : ﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ ، ووجه ذلك أنهم أسندوا المجىء والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين ؛ لأن الكبرياء شامل لهما فى زعمهم ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة فى الأعراف .

قوله : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ؛ لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم هكذا . قرأ حمزة والكسائى وابن وثاب والأعمش :« سحار » . وقرأ الباقون: ﴿ **ساحر** ﴾ وقد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف . والسحار صيغة مبالغة ، أى كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿**فلما جاء السحرة** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير هكذا : وقال فرعون ائتونى بكل سحار عليم فأتوا بهم إليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف ، قوله : ﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ أى قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له : إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقون ، أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿ **قال** ﴾ لهم ﴿ **موسى ما جئتم به السحر** ﴾ أى الذى جئتم به السحر على أن « ما » موصولة مبتدأ والخبر السحر ؛ والمعنى : أنه سحر ، لا أنه آية من آيات الله ، وأجاز الفراء

نصب السحر بـ﴿ **جئتم** ﴾ وتكون « ما » شرطية ، والشرط : ﴿ **جئتم** ﴾ والجزاء : ﴿ **إن الله سيبطله** ﴾ على تقدير الفاء ، أى فإن الله سيبطله . وقيل : إن السحر منتصب على المصدر ، أى ماجئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء ، واختاره النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر :« آلسحر » على أن الهمزة للاستفهام ، والتقدير : أهو السحر فتكون « ما » على هذه القراءة استفهامية . وقرأ أبىّ « ما أتيتم به سحر إن الله سيبطله » أى سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يدىّ من الآيات المعجزة ﴿ **إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ أى عمل هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوّليا . والواو فى﴿ **ويحق الله الحق**﴾للعطف على سيبطله، أى يبينه ويوضحه ﴿ **بكلماته**﴾ التى أنزلها فى كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوّليا ، والإجرام : الآثام .

قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه** ﴾ الضمير يرجع إلى موسى ، أى من قوم موسى ، وهم طائفة من ذرارى بنى إسرائيل . وقيل : المراد : طائفة من ذرارى فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون. قيل : ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته.وماشطة ابنته وامرأة خازنه . وقيل : هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل ، وروى هذا عن الفراء ﴿**على خوف من فرعون وملئهم** ﴾ الضمير لفرعون ، وجمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له . وقيل : إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار . وقيل : إنه عائد على مضاف محذوف ، والتقدير:على خوف من آل فرعون ، وروى هذا عن الفراء . ومنع ذلك الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما : قامت هند وأنت تريد غلامها . وروى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية . وقوّاه النحاس ﴿ **أن يفتنهم** ﴾ أى يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بالمصدر ﴿ **وإن فرعون لعال فى الأرض** ﴾ أى عات متكبر متغلب على أرض مصر ﴿**وإنه لمن المسرفين** ﴾ المجاوزين للحد فى الكفر ، وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات .

قوله : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ قيل : إن هذا من باب التكرير للشرط ، فشرط فى التوكل على الله الإيمان به والإسلام ، أى الاستسلام لقضائه وقدره . وقيل : إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل ، والمشروط بالإسلام وجوده ، والمعنى : أن يسلموا أنفسهم لله ، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها ؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط . قال فى الكشاف : ونظيره فى الكلام : إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوّة [1] ﴿ **فقالوا** ﴾ أى قوم موسى

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٤ .

مجيبين له ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ ثم دعوا الله مخلصين فقالوا : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة** ﴾ أى موضع فتنة ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ والمعنى : لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا ، ولا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم : لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم ، وعلى المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون . ولما قدّموا التضرّع إلى الله سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا : ﴿ **ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ وفى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .

قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا** ﴾ « أن » هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول أن تبوآ ، أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا ؛ يقال : بوّأت زيدا مكانا وبوأت لزيد مكانا ، والمبوأ : المنزل الملزوم ، ومنه : بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه فيه ، ومن الحديث : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » [1] ومنه قول الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك تبوّأ المجد بنا والملك

قيل : ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية . وقيل : هى مصر المعروفة لا الإسكندرية ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ أى متوجهة إلى جهة القبلة . قيل : والمراد بالبيوت هنا : المساجد ، وإليه ذهب جماعة من السلف . وقيل : المراد بالبيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوا منها قبلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول : هى جهة بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم . وقيل : جهة الكعبة ، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه . وقيل : المراد : أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ أى التى أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هى قبلة الصلاة إما فى المساجد أو فى البيوت لا جعل البيوت متقابلة ، وإنما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى وهارون ، ثم جعله لهما ولقومهما فى قوله : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة** ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال : ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ لأن اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء ، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة وإقامة الصلاة ؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصا بموسى ؛ لأنه الأصل فى الرسالة وهارون تابع له ، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها . وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **لتلفتنا** ﴾ قال : لتلوينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : لتصدنا عن آلهتنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ومجاهد فى قوله : ﴿ **وتكون لكما الكبرياء فى الأرض** ﴾

---

(١) أحمد ١/٢٩٣ ، ٣٢٣ والبخارى فى العلم (١٠٧) وفى الجنائز (١٢٩١) ومسلم فى المقدمة (٣/٣ ، ٤/٤) وأبو داود فى العلم (٣٦٥١) والترمذى فى الفتن (٢٢٥٧) وفى العلم (٢٦٥٩) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجة فى المقدمة(٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧) والدارمى ١/٧٦.

قال : العظمة والملك والسلطان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية** ﴾ قال : الذرية : القليل . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ **ذرية من قومه** ﴾ قال : من بنى إسرائيل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه .

وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد فى الفتن وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال فى تفسير الآية : لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ماعذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال : سأل ربه ألا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه** ﴾ الآية . قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم وأن يوجهوها نحو القبلة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أن تبوآ لقومكما بمصر** ﴾ قال : مصر : الإسكندرية . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : كانوا لا يصلون إلا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : أمروا أن يتخذوا فى بيوتهم مساجد . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان قال : القبلة: الكعبة ، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال : يقابل بعضها بعضا .

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا**

لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ .

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فى أمر أرسل إليهم دعا عليهم أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ، فقال مبينًا للسبب أولا : ﴿ **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا** ﴾ قد تقدم أن الملأ : هم الأشراف . والزينة : اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك . ثم كرر النداء للتأكيد فقال : ﴿ **ربنا ليضلوا عن سبيلك** ﴾ وقد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه : إنها لام العاقبة والصيرورة ، والمعنى : أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت . وقيل : إنها لام كى أى أعطيتهم لكى يضلوا . وقال قوم : إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال سبحانه : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن ، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ ، وقيل : اللام للدعاء عليهم ، والمعنى : ابتلهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : ﴿ **اطمس** ﴾ و ﴿ **اشدد** ﴾ . وقد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته [١] ، والقول الأوّل هو الأولى . وقرأ الكوفيون : « ليضلوا » بضم حرف المضارعة ، أى يوقعوا الإضلال على غيرهم ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى يضلون فى أنفسهم ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ . قال الزجاج : طمس الشىء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ أى اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان . قوله : ﴿ **فلا يؤمنوا** ﴾ قال المبرد والزجاج : هو معطوف على ﴿**ليضلوا**﴾ ، والمعنى : آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضا . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء بلفظ النهى ، والتقدير : اللهمّ فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش : إنه جواب الأمر : أى اطمس واشدد فلا يؤمنوا ، فيكون منصوبا . وروى هذا عن الفراء أيضا ، ومنه :

ياناق سيرى عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أى لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . وقد استشكل بعض أهل العلم ما فى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم . وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

يدعو على قومه إلا بإذن اللّه سبحانه ، وإنما يأذن اللّه بذلك لعلمه بأنه ليس فيه من يؤمن ، ولهذا لما أعلم اللّه نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال : ﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] ﴿ **قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما** ﴾ جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده ، فقيل : إن هارون كان يؤمّن على دعاء موسى فسمى هاهنا داعيا ، وإن كان الداعى موسى وحده ، ففى أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعى ، وهاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمّن منزلة الداعى ، ويجوز أن يكونا جميعا داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى فى أوّل الكلام لأصالته فى الرسالة ، قال النحاس : سمعت علىّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى : ﴿ **ربنا** ﴾ ولم يقل : رب ، وقرأ علىّ والسلمى : « دعاؤكما » وقرأ ابن السميقع : « دعوا كما » . والاستقامة : الثبات على ماهما عليه من الدعاء إلى اللّه . قال الفراء وغيره : أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ، ثم أهلكوا . وقيل : معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضا والتسليم لما يقضى به اللّه سبحانه . قوله : ﴿ **ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ بتشديد النون للتأكيد وحركت بالكسر لكونه الأصل ولكونها أشبهت نون التثنية وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفى لا على النهى . وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من ﴿ **تتبعان** ﴾ ، والمعنى : النهى لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة اللّه سبحانه فى إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا .

قوله : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ هو من جاوز المكان : إذ خلفه وتخطاه ، والباء للتعدية ، أى جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط ؛ لأن اللّه سبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ . وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : ٥٠] وقرأ الحسن : « وجوّزنا » وهما لغتان ﴿**فأتبعهم فرعون وجنوده** ﴾ يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه ، وقال الأصمعى : يقال : أتبعه بقطع الألف ، إذا لحقه وأدركه ، واتبعه بوصل الألف ، إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد . وقال أبو عمرو : إنّ اتبعه بالوصل : اقتدى به ، وانتصاب بغيا وعدوا على الحال ، والبغى : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة ، أى للبغى والعدو . وقرأ الحسن : « وعدوا » بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلو علوّا . وقيل : إن البغى : طلب الاستعلاء فى القول بغير حق ، والعدو : فى الفعل ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق** ﴾ أى ناله ووصله وألجمه . وذلك أن موسى خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق اللّه البحر لموسى وبنى إسرائيل ، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التى كان عليها عند مضىّ موسى ومن معه ، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من

الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ﴿ **قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ أى صدّقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والضمير للشأن ، وقرئ بكسر إنّ على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أى آمنت ، فقلت: إنه . ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله كما تقدّم فى النساء ، ولم يقل اللعين : آمنت بالله أو برب العالمين ، بل قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية . قوله : ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ أى المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ماسواه ، وهذه الجملة إما فى محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت .

قوله : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿ **قال آمنت** ﴾ أى فقيل له: أتؤمن الآن ؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فقيل : هى من قول الله سبحانه . وقيل : من قول جبريل . وقيل : من قول ميكائيل . وقيل : من قول فرعون قال ذلك فى نفسه لنفسه . وجملة : ﴿ **وقد عصيت قبل** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى : إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، والحال أنه قد عصى الله من قبل ، والمقصود التقريع والتوبيخ له ، وجملة : ﴿ **وكنت من المفسدين** ﴾ معطوفة على عصيت داخلة فى الحال ، أى كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق وإضلالك لغيرك .

قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قرئ: « ننجيك » بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل . وقرأ اليزيدى : « ننحيك » بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى ﴿ **ننجيك** ﴾ بالجيم : نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذاك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه . وقيل : المعنى : نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق ، ومعنى « ننحيك » بالمهملة : نطرحك على ناحية من الأرض . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: « بأبدانك » .

وقد اختلف المفسرون فى معنى ببدنك ، فقيل : معناه : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل : معناه : بدرعك والدرع يسمى بدنا، ومنه قول كعب بن مالك :

تـرى الأبـدان فيهـا مسبغـات ... على الأبطال واليلب [1] الحصينا

أراد بالأبدان : الدروع ، وقال عمرو بن معدى كرب :

ومضى نـاؤهم بكل مُضَاضةٍ ... جـدلاء سابغـة وبـالأبـدان

(١) واليَلَبُ : الدروع اليمانية ، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض ؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة اللسان ١/٦ ٨٠ .

أى بدروع سابغة ودروع قصيرة ، وهى التى يقال لها : أبدان كما قال أبو عبيدة . وقال الأخفش : وأما قول من قال: بدرعك ، فليس بشىء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد . قوله : ﴿ **لتكون لمن خلفك آية** ﴾ هذا تعليل لتنحيته ببدنه ، وفى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أى لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدعى ، ويندفع عنهم الشك فى كونك قد صرت ميتا بالغرق . وقيل : المراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتى من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه ، فإن هذا الذى بلغ إلى مابلغ إليه من دعوى الإلهية واستمرّ على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ :« لمن خلفك » على صيغة الفعل الماضى أى لمن يأتى بعدك من القرون أو من خلفك فى الرياسة أو فى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه ﴿ **وإن كثيرا من الناس عن آياتنا** ﴾ التى توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿ **لغافلون** ﴾ عما توجبه الآيات ، وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ يقول : دمرعلى أموالهم وأهلكها ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ قال : اطبع: ﴿ **فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ وهو الغرق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : سألنى عمر بن عبد العزيز عن قوله : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة ، فقال عمر : كما أنت حتى آتيك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها . وقد روى أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ قال : فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الإيمان . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمّن هارون على دعائه يقول آمين . قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء الله ، فذلك قوله : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظى نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج الحكيم الترمذى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى ، وهى الاستقامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : العدو والعتوّ والعلوّ فى كتاب الله : التجبر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر

أصحاب فرعون أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم ، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل : فعرفت أن الربّ رحيم وخفت أن تدركه الرحمة ، فرمسته بجناحى وقلت : آلآن وقد عصيت قبل ؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون : ماغرق فرعون ولا أصحابه، ولكنهم فى جزائر البحر يتصيدون ، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عريانا ، فلفظه عريانا أصلع أخينس [١] قصيرا فهو قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ لمن قال : إن فرعون لم يغرق ، وكأن نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى الله إلى البحر أن الفظ مافيك فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لايلفظ غريقا فى بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أغرق الله فرعون فقال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة » [٢] . وقد روى هذا الحديث الترمذى من غير وجه ، وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه أيضا الحاكم [٣] . وروى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى [٤] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « قال لى جبريل : ما كان على الأرض شىء أبغض إلىّ من فرعون ، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة ». وأخرج ابن جرير والبيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعًا نحوه [٥] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة مرفوعا نحوه أيضا ، وفى إسناد حديث أبى هريرة رجل مجهول ، وباقى رجاله ثقات .

والعجب كل العجب ممن لاعلم له بفنّ الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب سنه ، كيف يتجارى على الكلام فى أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذى يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيامسكين مالك ولهذا الشأن الذى لست منه فى شىء ؟ ألا تستر نفسك وتريع على ظالعك،وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بما هو علمك الذى لا تجاوزه ، وحاصلك الذى ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية،ولقد صار صاحب الكشاف رحمه الله،بسبب ما يتعرض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منه فى ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين، فتارة يروى فى كتابه الموضوعات وهو لا يدرى أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لردّ ما صح ،

---

(١) تصغير أخنس ، يخنسُ خُنُوسا : تأخر اللسان ٦/ ٧١ .

(٢) أحمد ١/ ٢٤٥ والترمذى فى التفسير (٣١٠٧) وقال :« حديث حسن » وابن جرير ١١/ ١١٢ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣١٠٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١١/ ١١٣ .

(٥) ابن جرير ١١/ ١١٢ والبيهقى فى الشعب (٧٣٩٠) ط . دار الكتب العلمية .

ويجزم بأنه من الكذب على رسول اللّه والبهت عليه ، وقد يكون فى الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم فى علم لا يعلمه ولا يدرى به أقلّ دراية ، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على أمور فيما بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسيم كتاب اللّه ، وقائله رسول اللّه ﷺ ، وراويه عنه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الإسلام .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : أنجى اللّه فرعون لبنى إسرائيل من البحر فنظر إليه بعد ما غرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بجسدك ، قال : كذب بعض بنى إسرائيل بموت فرعون ، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور. وأخرج ابن الأنبارى عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ قال : بدرعك، وكان درعه من لؤلؤة يلاقى فيها الحروب .

﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد بوأنا** ﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، ومعنى ﴿**بوأنا**﴾ : أسكنا ، يقال: بوأت زيدا منزلا ، أسكنته فيه ، والمبوأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق، والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر . وقيل : الأردن وفلسطين . وقيل : الشام ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات من الرزق

﴿ **فما اختلفوا** ﴾ فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿**حتى جاءهم العلم** ﴾ أى لم يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوة محمد ﷺ . وقيل : المعنى : أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ ، فاختلفوا فى نعته وصفته ، وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول : هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثانى : هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، والمحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل .

﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك** ﴾ الشك فى أصل اللغة : ضم الشىء بعضه إلى بعض ، ومنه شك الجوهر فى العقد ، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردد ويتحير ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد غيره كما ورد فى القرآن فى غير موضع . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلبا والمبرد يقولان : معنى ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ أى قل يا محمد للكافر : فإن كنت فى شك ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ يعنى : مسلمى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا ، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا ، وأن هذا رسوله ، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر . وقال القتيبى : المراد بهذه الآية : من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبى ﷺ ولا بتصديقه ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب : النبى ﷺ لا غيره . والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك هو ضيق الصدر ، أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم . وقيل : معنى الآية : الفرض والتقدير ، كأنه قال له : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا . فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك ؛ لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم .

قوله : ﴿ **لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشاك هو الحق الذى لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهى للنبى ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول فى نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله ، فإن الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : ﴿ **فتكون**

من الخاسرين ﴾ وفى هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهى لهم أنفسهم ؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك .

قوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قد تقدم مثله فى هذه السورة ، والمعنى : أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه ، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال ، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو فى حكم العدم ﴿ **ولو جاءتهم كل آية** ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية ، فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم :﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان وليس بإيمان . ولا يترتب عليه شىء من أحكامه .

قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ : « لولا » هذه هى التحضيضية التى بمعنى هلا ، كما قال الأخفش والكسائى وغيرهما ، ويدل على ذلك ما فى مصحف أبى وابن مسعود « فهلا قرية » ، والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به ، وذلك بأن يكون خالصا لله قبل معاينة عذابه ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا قوم يونس** ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد : أهلها ، والمعنى : لكن قوم يونس ﴿ **لما آمنوا** ﴾ إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿**كشفنا عنهم عذاب الخزى** ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم الكسائى والأخفش والفراء. وقيل : يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء ، وقرئ بالرفع على البدل ، وقال الزجاج فى توجيه الرفع : يكون المعنى : غير قوم يونس ، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها ، فأعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير . قال ابن جرير : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنه لم يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب . ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير . والمراد بعذاب الخزى الذى كشفه الله عنهم ، وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه . أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ **ومتعناهم إلى حين** ﴾ أى بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله فى الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم .

ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره ، فقال : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم** ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿ **جميعا** ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها الله سبحانه ، وانتصاب جميعاعلى الحال كما قال سيبويه . قال الأخفش : جاء بقوله : ﴿ **جميعا** ﴾ بعد ﴿ **كلهم** ﴾ للتأكيد كقوله : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ [النحل : ٥١] ولما كان النبى ﷺ

حريصا على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون ؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضى ذلك. فقال: ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ فإن ذلك ليس فى وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفى هذا تسلية له ﷺ ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذى لو كان صلاحا محققا بل يكون إلى الفساد أقرب . ولله الحكمة البالغة .

ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله : ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ أى ما صح وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه ، أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان ﴿ **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** ﴾ أى العذاب أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب . وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل : « ونجعل » بالنون . وفى الرجس لغتان ضم الراء وكسرها . والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون فى آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق** ﴾ قال : بوأهم الله الشام وبيت المقدس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ قال : العلم : كتاب الله الذى أنزله وأمره الذى أمرهم به . وقد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، وهو فى السنن والمسانيد ، والكلام فيه يطول (١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإن كنت فى شك** ﴾ الآية ، قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: « لا أشك ولا أسأل »(٢) . وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك** ﴾ قال : التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول : سلهم إن كنت فى شك بأنك مكتوب عندهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾ قال : حق عليهم سخط الله بما عصوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت** ﴾ يقول : فما كانت

---

(١) أحمد ٢/ ٣٣٢ وأبو داود فى السنة (٤٥٩٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٠) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة (٣٩٩١) .

(٢) ابن جرير ١١/ ١١٦ .

قرية آمنت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس . قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى [١] من أرض الموصل . فلما فقدوا نبيهم قذف الله فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشى وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلى الله أربعين صباحا ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :« إن يونس دعا قومه . فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب . فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا . ثم خرج عنهم ، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة [٢] وولدها . وخرجوا يعجون إلى الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر . فمر به رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضبا يعنى: مراغما. وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن ابن عباس أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثى ميل . فلما دعوا كشفه الله عنهم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له ما ترى ؟ قال : قولوا : ياحى حين لا حى . وياحى محيى الموتى ، وياحى لا إله إلا أنت ، فقالوا ، فكشف عنهم العذاب [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ قال : السخط . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الرجس : الشيطان ، والرجس : العذاب .

﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** ﴾

---

(١) نينوى : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح النون والواو بالموصل ، وبسواد الكوفة ، ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التى قتل بها الحسين بن على ــ رضى الله عنهما ــ معجم البلدان ٥/ ٣٣٩ .

(٢) تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والماعز ساعة تولد ، والجمع سخال اللسان ١١/ ٣٣٢ .

(٣) أحمد فى الزهد ٦١ وابن جرير ١١/ ١١٩ .

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ : لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية ، والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أى قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته . و﴿**ماذا**﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**فى السموات والأرض**﴾ ، أو المبتدأ « ما » ، و« ذا » بمعنى الذى ، و﴿ **فى السموات والأرض** ﴾ صلته ، والموصول وصلته خبر المبتدأ ، أى أى شىء الذى فى السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها . ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر فى هذه الدلائل لا ينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر**﴾ أى ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى أى شىء ينفع والآيات هى التى عبر عنها بقوله: ﴿ **ماذا فى السموات والأرض** ﴾ والنذر جمع نذير ، وهم الرسل أو جمع إنذار وهو المصدر ﴿ **عن قوم لا يؤمنون** ﴾ فى علم الله سبحانه ؛ والمعنى أن من كان هكذا لا يجدى فيه شىء ولا يدفعه عن الكفر دافع .

قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء ، فقد كان الأنبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه ، ثم قال : ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿ **فانتظروا** ﴾ أى تربصوا لوعد ربكم إنى معكم من المتربصين لوعد ربى ، وفى هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك ، و« ثم » فى قوله : ﴿ **ثم ننجى رسلنا**﴾ للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل : أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم . وقرأ يعقوب :« ثم ننجى» مخففا . وقرأ كذلك أيضا فى: ﴿ **حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ . وروى كذلك عن الكسائى وحفص فى الثانية . وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى ينجى إنجاء ، ونجى ينجى تنجية بمعنى واحد ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ معطوف على رسلنا : أى نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ

الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها ﴿ **كذلك حقا علينا** ﴾ أى حق ذلك علينا حقا ، أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقا ﴿ **ننج المؤمنين** ﴾ من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل فى ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصا بالمؤمنين وهم أتباع الرسل ؛ لأن الرسل داخلون فى ذلك بالأولى .

قوله : ﴿ **قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى** ﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله : إن كنتم فى شك من دينى الذى أنا عليه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته ، وأنه الدين الحق الذى لا دين غيره ، فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها ﴿ **فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ فى حال من الأحوال ﴿ **ولكن أعبد الله الذين يتوفاكم** ﴾ أى أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخص صفة المتوفى من بين الصفات لما فى ذلك من التهديد لهم ، أى أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أولا ، وعلى الإعادة ثانيا ، ولكونه أشد الأحوال مهابة فى القلوب ، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة ، فكأنه قال : أعبد الله الذى وعدنى بإهلاككم . ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان فقال : ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ أى بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين .

وجملة : ﴿ **وأن أقم وجهك للدين** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **أن أكون من المؤمنين** ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر ؛ لأن المقصود من « أن » الدلالة على المصدر ، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ، أو يكون المعطوف عليه فى معنى الإنشاء ، كأنه قيل : كن مؤمنا ثم أقم ؛ والمعنى : أن الله سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال . وخص الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم التحول عنها ، و﴿ **حنيفا** ﴾ حال من الدين ، أو من الوجه ، أى مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ثم أكد الأمر المتقدم للنهى عن ضده فقال : ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ وهو معطوف على ﴿ **أقم** ﴾ ، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ .

قوله : ﴿ **ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ معطوف على ﴿ **قل يأيها الناس** ﴾ غير داخل تحت الأمر ، وقيل : معطوف على ﴿ **ولا تكونن** ﴾ أى لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشىء من النفع والضر إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا ، ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره ، فكيف إذا كان موجودا ؟ فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح ﴿ **فإن فعلت** ﴾ أى فإن دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿ **فإنك إذا من الظالمين** ﴾ هذا جزاء الشرط ، أى فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك فى

عداد الظالمين لأنفسهم ، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ .

وجملة : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر** ﴾ إلى آخرها مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : أن الله سبحانه هو الضار النافع . فإن أنزل بعبده ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ أى خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان ، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم . قال الواحدى : إن قوله : ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ هو من القلب ، وأصله وإن يرد بك الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر . قال النيسابورى : وفى تخصيص الإرادة بجانب الخير ، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات ، والشر بالعرض . قلت : وفى هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها ، والضمير فى ﴿**يصيب به** ﴾ راجع إلى فضله ، أى يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وجملة : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ تذييلية.

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره ، فقال : ﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾ أى منفعة اهتدائه مختصة به ، وضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه ، وليس لله حاجة فى شىء من ذلك، ولا غرض يعود إليه ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل إليه ، إنما أنا بشير ونذير ، ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهى التى يشرعها الله له ولأمته، ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ ، وما يعانيه من تلون أخلاق المشركين وتعجرفهم،وجعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هى قوله:﴿ **حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ أى يحكم الله بينه وبينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم ، وفى الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه ﷺ هو وأمته المتبعون له المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه ، يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا ينفد ، ولا يمكن وصفه ، ولا يوقف على أدنى مزاياه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم** ﴾ يقول : عند قوم ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ نسخت قوله : ﴿ حكمة بالغة فما تغنِ النذر ﴾ [القمر : ٥] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ قال : وقائع الله فى الذين خلوا من قبلهم ؛ قوم نوح وعاد وثمود . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال : خوفهم عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا ، فقال : ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا** ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ يقول : بعافية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت

بهن عن جميع الخلائق : أولهن : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ ، والثانية : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴾ [فاطر: ٢]، والثالثة: ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : ٦]. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا راد لفضله** ﴾ قال : هو الحق المذكور فى قوله : ﴿ **قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **واصبر حتى يحكم الله** ﴾ قال : هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم .